شعر حافظ

١

معالمه ومقوّماته

لقد درس شعرَ الرجل غيرُ واحد ، وأطراه بعضهم إطراء لا حدّ له حتى لقد جعله أعظم شعراء العصر الحديث ، وغلا البعض فى ذلك فاعتبره أعظم شعراء العربية على الإطلاق . وهاجمه كذلك هو وغيره من كبار الشعراء غيرُ واحد هجوماً منكراً تشوبه شرّة الحقد والاضطغان . وقد حمل لواء هذه الحملة فى أوائل هذا القرن شباب الأدباء فى ذلك الحين أمثال إبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى وعباس العقاد رحمهم الله .. وكان المرحوم المازنى عنيفاً على حافظ فى غير نَصَفة أو هوادة . كان يراه رجلا جنى على الشعر والأدب ، وفى ذلك يقول : « ولو كان للأدب حكومة تنتصف له من المسىء وتكافئ المحسن لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر أن يبتاع ما اشتراه الناسُ من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جناية على الأدب . وأنت تعلم أن من الشعر ما يكون آثماً ومنه ما هو برىء صالح ، أما الآثم فهو الذى يفسد الذوق ويعوّد الناس الكذب ويضلل النفوس ، وشعر حافظ من هذا النوع »[1] . وقد نشر المازنى بضع مقالات فى صحيفة « عكاظ » كانت كلها حملة قاسية على شعر حافظ ، ثم جمعها فى كتيب صغير سماه « شعر حافظ » ولكنه لم يلق شيئاً ما من الرواج بين القراء ، وذلك لأن الحملة كانت ظالمة قائمة على التجنى والبخس . والظاهر أن نابتة الأدباء فى ذلك الوقت كانوا يبغون من مقارعة فحول الشعراء الشهرة والالتماع . وما أشبههم بشعراء العصر الأموى الذين كانوا يهاجمون جريرا زعيم شعراء ذلك العهد بغية ذيوع الصيت والظهور على المسرح ، وكان

(١) شعر حافظ للمازنى ص ١٤ .

جرير يحطمهم بضربة واحدة ، ولكنهم كانوا لا يخشون مغبة ذلك ، وحسبهم أنهم صاولوه ولو زمناً يسيراً .

والواقع أن المازنى وغيره من شباب الأدباء كانوا متحاملين على عمالقة الشعر لأنهم كانوا يحسون بأنهم مطمورون وراء هؤلاء العمالقة ، وقد أفصح الدكتور محمد مندور عن ذلك فى كتابه « إبراهيم المازنى » فقال : « وعلى أى حال فإن نقد المازنى الشاب للعمالقة من معاصريه كحافظ إبراهيم والمنفلوطى لا يخلو من تحامل شديد قد يدخل فى نطاق الدفاع عن النفس الذى يتحدث عنه المازنى . ونظن أن العقاد قد شاركه هذا الإحساس فجاء نقده هو الآخر بالنسبة للمعاصرين شبيهاً بنقد المازنى متضامناً معه . والواقع أن المازنى ورفاقه قد استشعروا الكثير من الضيق من الظلال التى كان يلقيها عليهم عمالقة العصر ، وكأنهم يحجبون عنهم ضوء الشمس ووهج المجد »[1] .

على أن المازنى نفسه بعد أكثر من عشرين عاماً نراه يندم على ما فرط منه ويصف حملته بأنها كانت خبالا وسفهاً فيقول : « ولقد افتتحت سيرتى فى الكتابة بأن نقدتُ حافظًا رحمه الله فى سلسلة مقالات كنت أعتز بها وأعتدها شيئًا ثمينًا فجمعتها ونشرتها فى كتاب بيع من نسخه القليل وتكدس أكثرها عندى فبعته لبقال رومى ليلفّ فى ورقاته ما شاء من جبن وزيتون ، أو يفعل بها ما هو شر من ذلك ، وقلت وقد خلصتُ أنفاسى واستراح قلبى : هذا خير ، فما يستحق مثل هذا النقد إلا هذا المصير »[2] .

وقد أقنعتنى دراستى المتئدة لشعر حافظ بأن فطرته الشاعرة التى زكت فى بيئة الإمام محمد عبده قد أصبحت إلى حد ما أسيرةً لتقاليد الصناعة واللغة . وكان حافظ إذا أفلت من ذلك الأسر جاء بالشعر الرائع ، وإذا احتجزته تلك القيود واستعصى عليه التملص منها كان شعره جافًا مبتذلا لا يعلو فوق مستوى مقالة صحفية منظومة .

---

(١) إبراهيم المازنى للدكتور مندور ص ٦٠ .

(٢) مجلة أبولو (يوليه ١٩٣٣) ص ١٣٢٨ .

فإذا رام حافظ أن يعبر عن مشاعره فى صدق وحرارة أتى بالقول مصقولا كثير الإيماض نىّ المستشفّ ، وأحياناً كان يخضع لعقله الواعى ويشعر بمنزلته من الشعب فينظم الشعر متهافتاً خالياً من صادق الإحساس إرضاء للجماهير ليس غير . وهذا — فى رأيى — هو السر فى أن حافظاً يجمع بين المتناقضات ، فنراه الشاعر العبقرى المنيع فى قصيدة ، والشاعر المتهاون المستهدف للنقد فى قصيدة أخرى . وما أشبهه — فى قيمة شعره — بالشاعر المخضرم النابغة الجعدى الذى كان تارة يأتى بالقول جزلا متيناً ، وتارة يجىء به ضعيفاً متهافتاً ، وأحياناً يسلك بين ذلك سبيلا ، حتى قال عنه الأصمعى : عنده مطرف بآلاف وخمار بواف »[1].

وليس من شك فى أن حافظاً وأضرابه من الشعراء الذين تهافتوا على إرضاء الجماهير قد أصابوا الفن الخالص بضربة فى الصميم ، فى حين أن الجماهير « لا تعدو الموج الصاعد الهابط الذى لا يستقر ولا يؤمن جانبه »[2] كما يقول المرحوم الشاعر خليل مطران . ولا يرتفع شعرٌ — مهما كان شأنه — يكون هدفُ صاحبه تصفيق الجماهير ليس غير .

والواقع أن بؤس حافظ قد أتاح له أن يختلط بسواد الشعب وأن يتعرف أهواءهم ، فكان يحتفى باستحسانهم لشعره ، ولا يأتى من القول إلا بما يصادف هوًى فى نفوسهم ، ويقول المرحوم الأستاذ المازنى : « وسبيل حافظ إذا أراد أن يقول شعراً فى حادثة أن يغشى مجالس الناس ويذاكرهم الحديث ليعرف ما ينبغى أن يكون رأيه رغبةً فيما يتبع ذلك من طيب الثناء وجميل الذكر »[3]. ومن أجل هذا كان حافظ يُلقى بنفسه قصائده فى المحافل والمنتديات حتى يستمتع باستحسانهم وتصفيقهم . وكان يتخذ استحسان الجماهير مقياساً لجودة شعره ، ولهذا كان يتوخى الألفاظ التى يحسن وقعها فى الأسماع والتى تلعب بعواطف السامعين ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٦ طبعة السندوبى .
(٢) أبولو ص ١٢٦٣ .
(٣) شعر حافظ ص ١٤ .

ولا يأتى إلا بالمعانى التى تلتقطها أذهانهم فى غير جهد .

وكان حافظ يفتش عن اللفظ المناسب للموضوع ويوائم بين موسيقى الطول والقصر وبين المعانى والأغراض . وكان يعيد النظر فى شعره ، ويبدّل لفظة بأخرى ويقدم ويزخر بغية توفير الجمال لفنه، وكان يسمى هذه العملية « بالتذوق » ، ويمدح بعض الشعراء بأنه « ذوّاق » ، يريد بذلك أن له ذوقًا طيبًا يعينه على المواءمة بين موسيقى اللفظ والموضوع من ناحية الفخامة والرقة ، والشدة واللين . وكان — كما يحكى عنه أصدقاؤه — « يصنع البيت فيردده على أذنه بإنشاده اللطيف حتى يتبين موقعه من أذنه قبل أن يوقعه على آذان الناس ، ويتذوق موسيقاه بنفسه قبل أن يتذوقها الناس »[١] .

وكان حافظ يعنى أشد عناية بتوفير عناصر الجمال اللفظى لشعره ، وكان احتفاله بالمعنى لا يساوى شيئًا بجانب احتفاله باللفظ . ويقول عنه صديقه الشيخ عبد العزيز البشرى : إنه ليؤمن قبل كل شىء بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضل . وهو يرى أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى ، وأن أدق المعانى وأجلها قد تقع للدهماء فى حوارهم ومنازع كلامهم . أما إشراق الديباجة ونصاعة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر »[٢]. فالمعانى — فى نظر حافظ — لقىّ فى الطريق، وهى مستراد مُشاع لكل مرتاد . ويقول حافظ عن نفسه فى حديث له مع محرر مجلة الهلال : « أما أنا فأميت المعنى إذا لم يتفق لى لفظ رائع »[٣]. وكان فى أقصى ضميره يؤثر البيت الجيد اللفظ على البيت الجيد المعنى من شعر الشعراء القدامى ويردّده مترنمًا فى إعجاب كما يذكر أصدقاؤه ، ويقول إن الطلاوة ونصاعة الديباجة هى كل شىء[٤]. ويقول عنه صديقه خليل مطران : « كان يتعب فى قرض

---

(١) مقدمة الديوان ص ٤٠ .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ١١ .

(٣) مجلة الهلال (عدد يونيه ١٩٢٨) ص ٩٠٧ .

(٤) انظر « مختارات الزهور » التى أصدرها المرحوم أنطون الجميل سنة ١٩١٤ ص ٢٠ .

قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج تمثال جميل من حجره »[١].

ويقول الأستاذ داود بركات : «كان حافظ كثير العناية بشعره ونثره يصقله ثم يصقله حتى إذا ما تم صقله ووثق بأنه صار صورة صادقة لما يريد تصويره تغنّى به ورددّه فإذا أطرب وإذا طرب هو لتلاوته عرضه على نخبة من الأدباء الذين يختارهم لنقده ، فلا يستكبر ولا يعاند ، بل يباحث ، فإذا هو اعتقد بأن الصواب ما قاله ناقده لا يعز عليه هدم ما بنى وتشييد سواه »[٢] .

ولعل مبعث عناية حافظ بلفظه أنه كان يخاطب الجماهير ، وهذا يدفعه إلى أن ينتقى اللفظ القوى الجذاب . ولهذا السبب نفسه قلّ الغريب فى شعره قلة ظاهرة ، لكى تقع أفهام السامعين على معانيه فى سهولة ويسر .

وكان حافظ ذا طبيعة واضحة لا غموض فيها ولا التواء . وقد جعلت منه هذه الطبيعة البسيطة شاعراً قليل الحظ من الخصب الذهنى والعمق العقلى . وقد نجم عن ذلك أن امتاز شعره بالوضوح وسهولة المأخذ . فهو شعر قريب الغور يكاد يكون خالياً من المعانى الفلسفية التى تلذ العقل والفكر ، ولا يجد المرء عناء أو مشقة فى الوصول إلى قراره .

وقد انضم إلى هذه الطبيعة البسيطة ثقافة سطحية وقلة تعمق للمسائل وعدم اطلاع على ثقافات الأمم الأخرى فى سعة واستقصاء ، فجاء شعره ضحلا لا عمق فيه . ومن أجل هذا لا نجد فيه كثيرا من الأبيات الحكمية التى تجرى على الألسن والتى تنبئ عن عمق النظر فى الحياة وفلسفتها . ومن أجل هذا أيضا كانت السطحية أبين خصائص شعره[٣] كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات .

ويقول الأستاذ عزيز أباظة فى تقديمه لكتاب « حياة حافظ إبراهيم » للأستاذ أحمد محفوظ : «كان شعره يقصر عن التحليق فى سماوات الخلق الواسعة المدى كما كان يفعل شوقى مثلا . ولكنه كان يستعيض عن ذلك بسهولة شعبية

---

(١) شاعرا العروبة ص ٥٧ .

(٢) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٣٦ .

(٣) انظر كتاب « فى أصول الأدب » للزيات ١/١١٠ .

محببة اكتسبها الشاعر من طول اندماجه فى طوائف الشعب المختلفة وتشرّبَ روحه من تلك الأرواح الخالصة المصرية . فكان رحمه الله شاعراً مصريًّا قحًّا » .

وأنت حين تقرأ قصيدة من قصائده التى نالت صيتا مدويًّا لا تأخذك منها غير جزالة اللفظ وروعة العبارة ، ولو أنك حللتها لما ألفيت فى معانيها شيئاً يروعك أو يستأثر بإعجابك . خذ مثلا قصيدته « الشعب يدعو الله يا زغلول » ، هذه القصيدة التى يقول فيها بعض الباحثين إنها من عيون الشعر العربى ، تجد فيها هذه الخصيصة الواضحة فى شعر حافظ . وحسبك أن تلقى عليها نظرة عاجلة لتتبين صدق ما نقول :

أنشد حافظ هذه القصيدة[1] ، فى الحفل الذى أقامه أعضاء البرلمان فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٤ بكازينو سان استفانو بالإسكندرية ابتهاجا بنجاة المغفور له الزعيم سعد زغلول ، وتوديعاً له بمناسبة سفره إلى لندن لمفاوضة الإنجليز ، وقد استهلها بهذه الأبيات :

الشعب يدعــو الله يا زغلول — أن يستقل على يديك النيل
إن الذى اندسّ الأثيم لقتــله — قد كان يحرسه لنا جــبريل
أيموت « سعد » قبل أن نحيا به — خطبٌ على أبنـــاء مصر جليل
يا سعد إنك أنت أعظم عدّة — ذُخرت لنا نسطو بها ونصـــول

والقصيدة من هذا اللون الذى يمتاز بالطلاوة ونصاعة الديباجة وجزالة العبارة ليس غير . وليس فيها معنى عميق يروعك أو صورة جميلة تبهرك . وقد غلبت عليه روح الفكاهة المتأصلة فى نفسه ، فساق نكتة يستثير بها الأسماع كما يصنع خطيب المحافل ، وقد اتخذ موضوع النكتة من لقب المحتفى به فقال :

النسر يطمع أن يصيد بأرضنا — سنريه كيف يصيده « زغلول »

ومعانى القصيدة كلها دارجة مما يدور فى خواطر السامعين وقد تتجاذبه ألسنتهم فى أحاديثهم ، ولا يرتفع على آفاق المتعلمين .

انظر إليه وهو يحذر سعداً المعروف بالفطنة والدهاء من خُدع الإنجليز

---

(١) الديوان ١/١١٠ .

وحيلهم الماكرة التى لا يجهلها أى امرئ ابتُلِىَ وطنه باستعمارهم :

لا تقرب « التاميز » واحـذر ورده   مهما بـدا لك أنه معسول
الكيـد ممزوج بأصفى مـائه   والختـل فيه مذوّب مصقول
كم وارد يا (سعد) قبلك مـاءه   قد عاد عنه وفى الفؤاد غليـل
القـوم قد ملكوا عنـان زمانهم   ولهم روايات به وفصـول
ولهم أحـابيل إذا ألقـوْا بهـا   قنصـوا النُّهى فأسيرهم مخبول
فاحـذر سياستهم وكن فى يقظـة   سـعدية إن السياسة غول
إن مثَّلوا فدع الخيـال فإنمـا   عنـد الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عرف السياسة فرسخ   واليـوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عنـدهم   معنى يقال بأنـه معقـول
نصلت سياستهم وحـال صباغها   ولكل كاذبة الخضاب نصـول
جمعـوا عقاقير الدهـاء وركَّبـوا   ما ركبـوه وعنـدك التحليـل

ويمضى حافظ على هذا النحو فيأتى بالمعانى « الشعبية » القريبة التى تخلب أسماع الحاضرين وتقنص نهاهم :

هذا وسامك فوق صـدرك مـاله   من بين أوسمة الفخـار مثيـل
حلَّيْتَـهُ بـدم زكىّ طاهر   فى حب مصر مصـونه مبذول
فى كل عصر للجنـاة جـريرة   ليست على مرّ الزمان تـزول
جاروا على (الفاروق) أعدل من قضى   فينـا وزكَّى رأيـه التنـزيل
وعلى (علىّ) وهو أطهرنا فـماً   ويدا وسيف نبينـا المسلـول

وهكذا نجد القصيدة كلها أشبه بالخطبة منها بالشعر . وكل قصائد حافظ ، وبخاصة التى كان يلقيها فى المناسبات من هذا الطراز الشعبى . ولذلك كانت تقابل باستحسان الجماهير التى كان حافظ يحتفى برضاها كل الاحتفاء .

وأحب أن أقول إن الجزالة وسلاسة العبارة وسطوة الألفاظ وعذوبة الجرس ليست بالشىء الهين فى الشعر فهى عنصر هام وركن قوى من أركانه . وقديماً كان أدباء العرب يعتبرون هذه الناحية هى كل شىء فى الشعر ، والمعنى بجانبها

خسيس المقدار لأنه لا يكلف الشاعر عناء فى اقتناصه ، أما اللفظ ففيه يتفاضل الشعراء وتتباين قدراتهم . ومن أوائل من نزع هذا المنزع بشر بن المعتمر والجاحظ والباقلانى وأبو هلال العسكرى وعبد العزيز الجرجانى .

فحافظ على كل حال قد وفر لفنه عنصراً له خطره من عناصر الشعر ، ولو قد جمع إلى ذلك المعنى العميق والفكرة السامقة لكان من أعظم فحول شعراء العرب .

ومن أبرز خصائص حافظ الشاعر أنه كان كَلِفاً بتقليد القدماء ، وليس ذلك بالأمر الغريب ، فهو تلميذ صريح للبارودى . وقد نشأ التلميذ يقلد أستاذه فى نظمه ، ثم أخذ يقلد القدماء كما كان يصنع أستاذه . وهو كأستاذه فى تحصيل الثقافة ؛ كان البارودى فى ثقافته لا يتجاوز أدب الأقدمين ، يحفظه ولا يكاد يتعمقه ، وكان حظ تلميذه من الثقافة كحظه لا يكاد يعتمد فى محصوله إلا على الأدب العربى القديم . وأقصد بالأدب العربى كتب الأدب الخالصة كالأغانى وديوان الحماسة والكامل والأمالى ودواوين الشعراء . وكان فهمه لهذه الكتب على قدر ما تتسع له طاقته العقلية ؛ يصيب الفهم أحيانا ويخطئه أحيانا أخرى . فنراه يزعم مثلا فى مقدمة ديوانه القديم — حين يتحدث عن أثر الشعر — أن بيتين لسديف الشاعر قد دفعا الخليفة العباسى السفاح إلى أن يفنى أمة بأسرها . والواقع أن السفاح قد نكل بالأمويين ، ولكنه لم يستطع أن يأتى عليهم . وهذا أمر يعرفه تلاميذ المدارس . وفرقٌ بين التنكيل بأسرة وإفناء أمة بأسرها. وأحب أن أقول فى غير حرج إن حافظاً كان مصاباً بتقصير فى الدرس وكسل فى العقل ، ولم يتجاوز فى ثقافته العربية هذه الثقافة الأدبية الخالصة التى تتصل بالشعر والخطب والرسائل وبعض الأخبار . وكانت درايته بعلوم العرب وفلسفتهم ونظمهم ضئيلة جداً .

ولهذا جاء شعره متسماً بالمسحة العربية فى ديباجته وفى صورته وفى طريقة أدائه ، فأنت ترى حافظاً يبالغ ويسرف فى المبالغة على طريقة القدماء من غير أن يمحص أو يحقق ، ولعله لم يكن يحفل بمثل هذا التحقيق أو التمحيص ، لأنه

كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى نفوس السامعين أو القارئين . ويبدو أنه كان يؤمن كذلك بأن الناس ما كان يعنيهم التحقيق بقدر ما يعنيهم الاستمتاع بجزالة اللفظ وطلاوة العبارة . وهو يرى ذلك ويقرره أمام أصحابه ، لأنه لا يحق لهم أن يكلفوا الشعر ما يكلفون النثر من الدقة والتحقيق العقلى .وهذه المبالغة ظاهرة فى رثائه وفى مدائحه بنوع خاص .

وأعتقد أن طبيعة حافظ نفسه قد أذكت من روح هذه المبالغة التى يجرى فيها على غبار الأقدمين. لأنه كان رجلا بسيطًا فى خلقه، يسرف فى الحب ويسرف فى الرضا ويسرف فى السخط ويسرف فى الحزن ويسرف فى الإخلاص . فهو يستدر الدمع المدرار على الفقيد ، ويخيل إليه أن هذه الدموع تحمل نعشه إلى قبره ، وأن أنفاس الناس تدفعه :

مشى نعشه يختـــال عجبًا بربه ... ويخطر بين اللمس والقبـــلات
تكاد الدموع الجاريات تُقـــلّه ... وتدفعـــه الأنفـــاس مستعرات[1]

وكم كانت الريح تتمنى أن تُسَخَّر لحمل نعش الفقيد بدل أن يحمله الماجدون . والشمس ودّت لو تهبط من علياها مؤثرة أن تساكن الفقيد فى جدثه الموحش ، والضحى ود أن يُدرَج الفقيد فى كفن مقدود منه :

وودَّتْ الريح لو كانت مسخّرة ... لحمل نعشك عن هام الأماجيد
والشمس لو أنها من أفقها هبطتْ ... وآثرتْ معكَ سكنى القفر والبيـــد
وكم تمنى الضحى لو أنهم دَرَجوا ... هذا الفقيد بثوب منه مقـــدود[2]

وحافظ يرجو تراب الأرض أن يلتمس ورده من المجرة وطعامه من النجوم :

أيهـــذا الـــثرى إلام التمـــادى ... بعد هـــذا أأنت غرثان صـــادى
قد جعلْتَ الأنام زادك فى الده ... ر وقـــد آذن الورى بالنفـــاد
فالتمس بعـــده المجـــرة وِرْدًا ... وتـــزوّد من النجـــوم بـــزاد[3]

(١) الديوان ٢/١٤٤ .
(٢) الديوان ٢/١٣١ .
(٣) الديوان ٢/١٣٣ .

وهو يطلب إلى جدث الزعيم مصطفى كامل أن يكبّر وأن يهلل وأن يلقى صاحبه جاثيًا رهبة وإجلالا :

أيا قبرُ هذا الضيف آمال أمة   فكبِّرْ وهلِّلْ والْقَ ضيفك جاثيا(١)

ولعل هذه المبالغة تذكرنا بأساليب الأقدمين فى الرثاء ، وبما كان فيها من صور تغلو فى المبالغة إلى حد بعيد ، من مثل رثاء أبى تمام لمحمد بن حميد الطوسى ، ورثاء البحترى للمتوكل ، ورثاء أبى طاهر بن بقية لوزير عز الدولة ، وغير ذلك . ويذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه سأل حافظًا — رحمه الله — ذات مرة : كيف تتصور قبر مصطفى جاثيًا ؟ فقال : دعنى من نقدك وتحليلك ، ولكن حدثنى ، أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يثير فى نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ فقال الدكتور : بلى ولكن . . . فقال حافظ ؛ دعنى من « ولكن » واكتف بمثل هذا(٢) . .

ونحن حين نقرأ المقدمة التى صدّر بها ديوانه القديم نجده يحصر المثل الأعلى للشعر فى محاكاة الشعراء المتقدمين من رجال العصر الأموى والعباسى ، وهو فى ذلك متأثر — من غير شك — بأستاذه البارودى . وقد أشار شوقى فى رثائه لحافظ إلى إعزازه القديم وإيثاره فقال :

يا حـــافظ الفصحى وحارس مجدها   وإمـــام مَن نَجلتْ من البلغاء
ما زلتَ تهتف بالقـــديم وفضله   حتى حميْتَ أمـــانة القـــدماء

وكان حافظ لا يحسن تقليد القدماء فى بعض مناهجهم ؛ فقد رام أن يقلد عمر بن أبى ربيعة فى نظم قصة غزلية فأخرجها هزيلة تتخلج فى مشية عرجاء . . . كما صنع فى مدحته لأستاذه البارودى التى مطلعها :

تعمـــدتُ قتلى فى الهوى وتعمدا   فما أثمتْ عينى ولا لحظه اعتدى(٣)

وقد استغرقت القصة أكثر من ثلثى القصيدة . وأراد أن يحذو حذو القدماء

(١) الديوان ٢/١٤٩ .
(٢) حافظ وشوقى ص ١٧٣ .
(٣) الديوان ١/٧ .

فى بدء القصيدة بالنسيب فاستطرد فيه حتى استغرق أكثر من نصف القصيدة ، كما نرى فى قصيدته الميمية التى قالها عند عودة الخديو عباس من الآستانة ، وقد عرض فيها للخلاف الذى كان محتدماً فى تلك الآونة بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ ، ومطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متيم دامى الفؤاد وليله لا يعلم(١)

وتذكرنا هذه الحال بما حدثنا به ابن قتيبة من أن بعض الرجاز أتى نصر ابن سيار والى خراسان فى عهد بنى أمية فمدحه بأرجوزة انتهب معظمها فى النسيب فقال نصر : والله ما أبقيتَ كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك ، فإن أردتَ مديحى فاقتصر فى النسيب ، فأتاه مرة أخرى فأنشده :

هل تعرف الدار لأم الغمر دع ذا وحبّر مدحة فى نصر

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ولكن بين الأمرين(٢) .

ولما عاب بعض الأدباء فى مستهل هذا القرن على الشعراء نظمهم فى حب ليلى وسلمى ، ومساءلة الدمن ووصف الناقة ، تحركت نفس حافظ متجاوبة مع هذه الدعوة وقال قصيدته المعروفة فى الشعر ومطلعها :

ضعتَ بين النهى وبين الخيال ياحكيم النفوس يا ابن المعالى(٣)

وفيها يعيب على الشعراء تقليدهم للأقدمين ، ويسخر من تلك الأوضاع القديمة :

قد أذالوك بين أنس وكأس وغرام بظبية أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء ورثاء وفتنة وضلال
حمّلوك العناء من حبّ ليلى وسليمى ووقفة الأطلال

ويدعو فى صرخة مدوية إلى تحرير الشعر من هذه القيود :

آن يا شعر أن تفك قيودا قيّدتْنا بها دعاة المحال

---

(١) الديوان ٢٨٨/١ .
(٢) انظر مقدمة الشعر والشعراء .
(٣) الديوان ٢٣٧/١ .

فارفعـــوا هـــذه الكمائم عنا ودعـــونا نَشَمّ ريح الشمال

ولكن هل جدّد حافظ ؟ الواقع أنه حاول فى بعض الأحيان أن يجدّد فكان تجديده محدود الأفق ضيق المحيط . كان القدماء مثلا يفتتحون قصائدهم بوصف الدمن والأطلال والراحلة لأن ذلك هو ما كان يقع تحت حسهم ، فأراد حافظ أن يساير روح العصر وحضارته ، فافتتح بعض قصائده بما يقع تحت ناظره من مخترعات . ومن ذلك قصيدته التى أنشدها فى حفل أقامته جماعة رعاية الأطفال بدار الأوبرا وقد استهلها بوصف القطار :

صفحة البرق أومضت فى الغمام أم شهاب يشق جوف الظلام
أم سليل البخار طار إلى القصـ ـد فاعيا سوابق الأوهـــام
مرّ كاللمح لم تكد تقف العيـ ـن على ظل جرمه المترامى

وقد استغرق وصف القطار أكثر من عشرين بيتاً ، ولم أجد آصرة تجمع بين وصف القطار وملجأ رعاية الأطفال ، اللهم إلا أن القطار يقوم مقام الراحلة التى كانت وسيلة السفر عند العربى القديم ، ونسى حافظ أن هذا الوضع قد اقتضته البيئة البدوية القديمة التى كانت لا تعرف القرار [1] .

ولكنه اعتبر عمله هذا تجديداً ، ولمَ لا يجدّد وهذه صيحة التجديد تُصم أذنيه ؟ غير أن تجديده جاء على طريقة القدماء ، مقرّراً لمنهجهم .

وكل ما صنعه أنه جدّد فى الموضوعات ، أى أنه تناول الأحداث السياسية والاجتماعية التى تفتّق عنها عصره . وهذا أمر لا أرى له فيه فضلا ، لأن الشاعر دائماً فى كل عصر يعيش فى ملابسات زمنه وبيئته ، وليس من المعقول أن يخرج شاعر من إهابه وينفض عن نفسه غبار عصره ليعيش فى أغوار القرون الماضية .

وكان حافظ شديد التعمل ، كثير التأنق ، يُعنّت ذهنه فى تقليد شعراء العرب الأقدمين . وقد جنى عليه التقليد إلى حد ما ، وأغلق فى وجهه أبواب التصرف والتفنن ، وبخاصة فى مقتبل حياته الأدبية . ولهذا نحس بأن الصنعة قد غلبت على الكثير من شعره وهو الذى يقول فى مقدمة ديوانه القديم : خير

(١) اقرأ تعليل النسيب بالتفصيل فى مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

الشعر ما جاء عن غير كد ولا تعمُّل وتحامى طريق التعسف والتكلف » .

فشعر حافظ فى معظمه كان شعراً تقليدياً لا يُعنى إلا بالتقرير التام كما يقول أدباء الفرنجة ، وهو بهذا بعيد عن الشعر الرومانتيكى الذى يكون مصدره الإيحاء التام .

ومع هذا كان شعره قريباً إلى النفوس ، لأن روحه العذبة الحلوة تنساب فيه ، ولأن بساطة خلقه تطلّ عليك من كلماته ، فى شعره — كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ — « جاذبية غير واضحة ولا مفهومة ، يحسها القلب وينكرها الذوق الفنى »[1] .

ونحن لا ننكر أن حافظاً كان شاعراً حاضر البديهة ، سريع التأثر "Impressionist" ، ولكنه أفسد طبيعته بالصناعة بدل إطلاقها على سجيّتها . وربما كان هذا عاملاً من العوامل التى جعلت إنتاجه الشعرى غير غزير .

وقد ظل حافظ محافظاً على القديم ، معتصماً بحبله ، مقلداً للقدماء دون تجديد يذكر حتى آخر عمره . وكان فى استطاعته أن يتناول أحاسيس النفس البشرية ، فيُبرز لنا من جوانبها الكثيبة التى عاناها صوراً رائعة عميقة تمثل النفس الإنسانية أصدق تمثيل . ولكنه انزوى فى ركن القدماء وترك ميدان الشعر الرحيب وقد تفاسحت أكنافه بفعل الحضارة والعلم .

* * *

وهناك مسألة أشرنا إليها إشارة خاطفة فى فصل سابق ، ونحب أن نتناولها هنا بشىء من الإسهاب ، تلك هى أثر الوظيفة فى نشاط حافظ الشعرى . ويقول بعض الأدباء إن وظيفة دار الكتب كانت نعمة على جيب حافظ ونقمة على فنه ، لأنه اضطُر إلى المصانعة والمداراة ، وإلى أن يحسب للقول حساباً ، فتحطمت قيثارته ونضب معين شعره أو كاد ، وأصبح لا ينظم الشعر إلا فى مناسبات مُلِحّة . ومعنى ذلك أنهم يضيّقون ساحة الشعر ويقيدون قدرة الشاعر ويحدّون من انطلاقه ، لأن الشعر متسع الآفاق يتناول جوانب الحياة كلها ، ولا يقتصر على

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨٦ .

السياسيات والوطنيات ؛ فهناك شعر الطبيعة والوصف وميدانه رحب فسيح ، وهناك الشعر الذى يترجم خلجات النفوس والمشاعر ، وهناك غير ذلك من الموضوعات التى كانت أخلق بالتناول . ولكن حافظاً قصّر فى هذا كله تقصيراً باديًا. وقد أشار إلى ذلك أستاذنا المرحوم أحمد أمين فقال : إن حافظاً لم يكن يستطيع حقًّا — وقد قبل المنصب فى دار الكتب — أن يقول الشعر فيما كان يقول فيه قبل من اجتماعيات وسياسيات . ولكن لماذا سكت عن فنون الشعر الأخرى والمجال أمامه فسيح ؟ فليس كل شعر سياسة واجتماعًا ، فهناك شعر الطبيعة وهناك شعر القصص وهناك شعر الوصف وغيره من أنواع الشعر ، ولم تكن وظيفته تمنعه من أن يقول فى كل ذلك أو فى شىء من ذلك ، وفى شوقى المثل لهذا ، فقد كان مقيداً فى القصر بأشد من قيود دار الكتب ، ومع هذا ظل يقول فى فنون مختلفة من الشعر لا تتنافى وتقاليد القصر »[1].

وغريب من حافظ ألا تحفزه طبيعة مصر الخلابة ولا نيلها الفياض ولا آثارها الرائعة ولا صحراؤها المنبسطة ولا شمسها الساطعة ولا نجومها المتألقة ولا مروجها الخضراء — غريب ألا يحفزه ذلك كله إلى أن ينظم فيه شعراً ، فقد تقاعس واستسلم للصمت ، وأبت شاعريته أن تحلق فى هذه الآفاق الفسيحة التى تمس شغاف النفس وتتصل بأعمق أعماقها ، وبخاصة وأنه عانى ضروبًا من البؤس والشقاء شطراً كبيراً من حياته ، ولم يكفّ عن الشكوى طول عمره . ويقول الأستاذ حسن الصيرفى : « وكان فى استطاعة حافظ — إذا فُرض أنه طلق الشعر تحت ضغط قيود الوظيفة — ألا يحرم قيثارته العزف عليها فى نواح أخرى ؛ كأن يرسم صوراً للشقاء الذى يلازم الحياة فى مصر وهو الذى خبره ولمسه وعاش فيه زمنًا ليس بالقصير ، وكان من الأسباب التى دفعته إلى نقل رواية البؤساء إلى العربية»[2].

فحافظ فى الواقع قد قصّر أيما تقصير إبان عمله فى دار الكتب ، وتخلّف عن زميله شوقى أيما تخلّف ، هذا الشاعر العظيم الذى كانت قيود القصر تغلّ

---

(١) مقدمة الديوان ص ٣٦ .

(٢) حافظ وشوقى لحسن الصيرفى ص ٩ .

من طاقته الفنية ، ولكن شاعريته الأصيلة حلّقت فى سموات الفنون الشعرية البعيدة عن السياسة فأتت بالمعجزات .

وقد نظم حافظ فى أغراض الشعر التى اعتاد الناس أن ينظموا فيها من مدح ، ومداعبة للإخوان والشكوى إليهم ، وما كان يشغل بال الناس من أمور تتصل بالمجتمع ونحو ذلك . وقل أن تجد فى شعره هذا معنى جديداً يخلب اللب ، وإنما كان يتناول معانى من سبقه من الشعراء فضلا عن أغراضهم . ومع هذا كان يرى نفسه شاعر العصر الذى لا يدانيه شاعر آخر . وكانت ظروف الحاجة تضطره أحيانا إلى أن يقرّ بفوقان شوقى ، وهو يصرح بذلك فى موطن لم يكن له أن يسلك فيه سوى هذا السبيل فى قصيدة نظمها سنة ١٩٠١ :

قل للألى جعلوا للشعر جائزة ... فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
إنى فتحتُ لها صدراً تليق به ... إن لم تحلّوه فالرحمن حلاّه
لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى ... إلا فتى ماله فى السبق إلاه
ذاك الذى حكمتْ فينا يراعته ... وأكرم الله والعباس مثواه

أما من عداه من كبار شعراء ذلك العصر فلا يبلغون شأوه فى نظره .

ولعل حافظاً كان يرى أن حظ مصر من الشعر فى أوائل هذا القرن كان قليلا . فالبارودى قد أدركته الشيخوخة وأخذ يدلف إلى القبر ، وإسماعيل صبرى كان يجيد فى نواح خاصة ، كالتعبير عن المعانى الدقيقة والشعور النفسى العميق فى مقطوعات صغيرة يصوّر بها أحاسيسه ومشاعره ، ولم يكن يحترف الشعر كما كان يحترفه حافظ وشوقى ، لأن منصبه الحكومى الرفيع كان يسمو به عن ذلك .

وعبد المطلب كان شعره عربيّاً أعرابيّاً لا يساير العصر الذى يعيش فيه .

ولعل حافظاً كان يرى فى أعماق نفسه أن شوقى لم يبزه إلا لتفيّئه ظلال السراى وكونه شاعر الأمير ليس غير ، ولولا ذلك ما فاقه ، وهو يشير إلى ذلك من طرف خفى فى هذا البيت :

ذاك الذى حكمت فينا يراعته ... وأكرم الله والعباس مثواه

* * *

والآن أحب أن أتناول جوانب من شعر حافظ يتسع المجال فيها بالحديد من القول، وألقى عليها أضواء تجلّيها وتساعدنا على أن تكون آراؤنا فيها صادقة لاشطط فيها ولا زيغ .

٢

الوصف والخيال

لم يبرع حافظ فى فن الوصف ؛ وما كان له أن يبرع فيه . وأكثر شعر الوصف عنده لا يهز مشاعرك ولا يملأ جوانب نفسك ولا ينال منك ذرة من إعجاب .

فلقد عجز حافظ عن أن يقف أمام مشاهد الطبيعة وقفة التأمل الشاعرى والاستغراق الحسى يستكنه أسرارها ويعكس عليها مشاعره وأحاسيسه . والطبيعة ما زالت منذ القدم وحى الشاعر ، ترفع مرآتها لعينه فيجتلى فى صقالها أعمق أعماق نفسه . . . يزحف الليل فيفنى ظلام صدره فى ظلامه الشامل ، وتعود الشمس إلى الطلوع فيذكر أيامه العذاب الماضى ، وتجنح إلى الأصيل ويخبو ضرامها ، وتدلف نحو الطفل فيشيع مخايل الرجاء فى حياة ثانية يعقد بها حبل أمانيه ويصل أسبابه بأسبابها . بل إن فى قلب الطبيعة لهموما كانت ولا تزال معينا لا ينضب للشعر الحى . وما أجمل قول الشاعر الإنجليزى « وردز ورث Words Worth »: « إن فى مطلع الفجر لهيبا متوهجا قصير العمر يلهم الشعراء ، ولطالما اضطرم قلبى له حين أطلقت نفسى من عقال النوم »[1] .

ولست أرى حافظا من هؤلاء الشعراء الذين عناهم « وردز ورث » . فقد شغله بؤسه وشغله تندّره بالناس عن أن يتأمل ما فى الطبيعة من جمال وسحر ؛

(١) Lyrical Ballads by Words Worth & Coleridhe. p. 139.

ولذلك جاء وصفه جامداً هامداً . واقرأ له مثلا قصيدته فى وصف « الشمس » التى مطلعها :

لاح منهـــا حاجب للناظرين فنسوا باللـيـــل وضّاح الجبين (١)

تره يرسم خطوطّا لقصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع الشمس التى ذكرها الله تعالى فى سورة « الأنعام » بقوله : (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون) ، وكأنه يقرر حادثة تاريخية من غير أن يستشعر صلة روحية بينه وبين الشمس :

نظر ابراهام فيهـــا نظـــرة فأرى الشاك وما ضل اليقين
قال : ذا ربى ، فلما أفلت (قال : إنى لا أحب الآفلين)
ودعا القـــوم إلى خالقهـــا وأتى القوم بسلطان مبين
رب إن النـــاس ضلّوا وغوَوْا ورأوا فى الشمس رأى الخاسرين
خشعتْ أبصـــارهم لما بدتْ وإلى الأذقان خروا ساجدين

ثم أخذ بعد ذلك يسرد أثر الشمس فى الكائنات على نحو ما يدرسه تلاميذ المدارس فى علم الطبيعة :

هى أم النـــار والنور معـــا هى أم الريح والمـــاء المعين
هى طلْع الروض نوْراً وجنًى هى نشْر الورد ، طيب الياسمين

وربما كان أجمل ما فى القصيدة أنه ردّ على مزاعم من كانوا يعبدونها بأن (إلههم) لا يملك أن ينفى عن نفسه الكسوف :

أإلهٌ لم ينـــزّه ذاتـــه عن كسوف ، بئس زعم الجاهلين !

ولكن جمال البيت جاء من ناحية العقل والمنطق لا من ناحية العاطفة والإحساس .

وعلى كل حال فالقصيدة كما رأيت وليدة العقل الواعى ، لا الإحساس الفياض ، ولذلك جاءت خالية من الروح والحياة ، مع أنها من أشهر قصائده الوصفية .

---

(١) الديوان ١/٢٠٧ .

وهاك نموذجا آخر من شعره الوصفي ، قصيدته في وصف زلزال (مسينا) وهى قصيدة ذائعة الصيت ، ومطلعها :

نبئانى إن كنتما تعلمـــان ... ما دهى الكونَ أيها الفرقدان[1]

وفيها يقول :

غليانٌ في الأرض نفَّس عنــه ... ثورانٌ في البحر والبركان
ربِّ ، أين المفرّ والبحـــرُ والـ ... ـبرّ على الكيد للورى عاملان ؟
كنتُ أخشى البحارَ والموتُ فيها ... راصدٌ غفلةً من الربان
سابحٌ تحتنا ، مطلٌّ علينــا ... حائم حولنا ، مُناء مـــدانى
فإذا الأرض والبحار ســواء ... في خَلاق كلاهما غادران
ما (لمسّين) عوجلت في صباها ... ودعاها من الردى داعيان
ومحتْ تلكمُ المحاسنَ منهـــا ... حين تمتْ آياتهـــا آيتـــان
خُسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت ... قُضى الأمـــر كله في ثوانى
وأتى أمرها فأضحت كأن لم ... تك بالأمس زينة البـــلدان

والقصيدة يبدو فيها التصنع والتكلف بحيث إنك لو حذفتَ عنوانها ولفظة (مسين) التي وردت فيها وأردتَ أن تتبين غرضها من فحوى أبياتها ومعاريض لفظها لألفيتَ ذلك مطلبًا عسيراً ، حتى لقد حقّ لبعض الباحثين أن يسميها — دون تجن — « جغرافية البراكين »[2] . ولو أنشدتك هذين البيتين :

ليتها أُمهِلتْ فتقضى حقـــوقا ... من وداع الـــلدات والجـــيران
لحظةً يسعد الصديقان فيهـــا ... باجتماع ويلتقى العاشقان

ولم أقل لك إنهما من قصيدة في زلزال (مسينا) لما جرى ببالك أنه يعنى بلداً لأن ذلك بعيد عن المعقول ، ولسبق إلى خاطرك أنه يذكر فتاة عجّل بها قدَرُ النوى . ولو قرأت هذه الأبيات على غير معرفة بما يقصد الشاعر :

لا رعى الله ســاكن القمم الشـ ... ـمّ ولا حاط ساكن القيعان

---

(١) الديوان ١/٢١٥ .

(٢) حافظ وشوقى للأستاذ حسن الصيرفى ص ٥١ .

قد أغارا على أكفّ براها بارئ الكائنات للإتقان
كيف لم يرحما أناملهـا الغـ ـر ولم يرفقا بتلك البنـان

(يريد النسور والحيتان) — أقول لو قرأت هذه الأبيات عرَضاً لاعتاص عليك أن تدرك أنه يصف زلزالا . فقد تقال فى زلزال ، وقد تقال فى حرب ، وقد تقال فى شىء غير هذا .

ولولا هذه الأبيات التى يصف فيها حافظ الكارثة وصفاً ليس فيه إحساس الشاعر وعميق تأثره لما أدركتَ موضوع القصيدة والغرض الذى يقصده . وهذه هى الأبيات التى تتناول صميم الكارثة ولكن فى غير حياة أو روح ، ولا تعدو أن تكون شيئاً أشبه بالقصص :

رُبَّ طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى
وفتـاة هيفـاء تُشوَى على الجمـ ـر تعانى من حرّه ما تعـانى
وأب ذاهل ، إلى النار يمشى مستميتاً تمتـد منـه اليـدان
باحثاً عن بنـاته وبنيـه مسرع الخطـو مستطير الجَنَان
تأكل النار منه ، لا هو نـاج من لظاها ، ولا اللظى عنه وانى
غَصَّت الأرض ، أُتخم البحر مما طويـاه من هـذه الأبـدان
وشكا الحـوتُ للنسور شكاة ردّدتهـا النسـور للحيتـان
أسرفا فى الجسوم نقـراً ونهشاً ثم باتا من كِظَّة يشكوان

فأين هذا الوصف من وصف شوقى الذى ينبض بالحياة والحركة ؟ هذا الشاعر العظيم الذى رتع طرفه فى مشاهد الطبيعة فتأمل سماءها وشمسها وكواكبها وبرقها ورعدها وشفقها وضحاها ، وسرح فى بحرها وموجها ، وسمعت أذنه عصف رياحها ، وشمّ أنفه عَرْف رياضها ، وتغلغل فى صحراها ورمالها ، وعرف لغة الطبيعة وألحانها . . .

والحق أن الطبيعة كانت مادة خصبة لصور شوقى الفنية ، استلهمها فألهمته وناجاها فاستجابت لمناجاته .

ولو شئت أن تعقد مقارنة بين قصيدة حافظ فى وصف زلزال « مسينا »

وبين مثيلتها عند شوقى فى وصف زلزال « طوكيو » ومطلعها :

قف « بطوكيو » وخبّر عن « يوكوهامه » وسل القريتين كيف القيامه ؟[١]

لألفيتَ شوقى يعطيك صورة رائعة عن الكارثة قد أبدعتها يدٌ صنّاع ، ولأحسستَ بالحركة تنبعث فى جوانب الصورة طبيعية غير مفتعلة لم تأخذ طريقها بالروح الجغرافى كما صنع حافظ . ولست أرانى فى حلٍّ من أن أذكر لك أبياتا من قصيدة شوقى أو قصائده الوصفية الأخرى لأن المقام لا يقتضى ذلك . وحسبى أن أحيلك على ديوان « الشوقيات » لتعرف براعة أمير الشعراء فى الوصف .

ومع أن شوقى أبرع شعراء العصر الحديث فى الوصف نراه لا يبلغ فيه شأو شعراء الإفرنج . فكثيراً ما نراه لا يتصل بالطبيعة بروحه وأحاسيسه ، ويصفها وصفاً مجرداً دون أن يبثها شيئاً من عواطفه. وقد كنت أقرأ نونيته المشهورة « قفى يا أخت يوشع خبرينا » فأحسست أنه لم يخلق بينه وبين الشمس صلة روحية ولم يتصل بها بقلبه وحسه على نحو ما يفعل شعراء الإفرنج مثل « دى لامارتين » الفرنسى و « ويلز » الإنجليزى وغيرهما ، وإنما اتصل بها بفكره وبعقله فقط .

وقد أصاب كبدَ الحقيقة الأديبُ الفاضل الأستاذ حسن الصيرفى حين قال: « أول ما يلاحظ على فن الشاعرين المادية التى لم يستطيعا أن يبرآ منها، حتى فى الأوصاف التى تنأى عن المادية ، وقل أن تصفو صورهما منها . . . ولكن شوقى كان يتجه صوب الخيال فى كثير من قصائده ، وبخاصة ما كان متصلا بالطبيعة . على أن اتجاهه ناحية الخيال لم يكن استغراقاً فى الطبيعة ، ولكنه كان افتتاناً حسياً أكثر منه افتتاناً روحياً »[٢] .

بيد أنى أحب أن أقول إن شوقى له — مع ذلك — قصائد الوصف الرائعة التى تمتلىء بالحيوية المتدفقة والتى تحس فيها بالصلة الروحية منعقدة بين الشاعر وبين الموصوف ، مثل قصائده فى النيل وغابة بولونيا والآثار المصرية

---

(١) الشوقيات ٢/١٠٣ .

(٢) حافظ وشوقى للصيرفى ص ٦٩ .

وتوت عنخ ودمشق وزحلة ووصف الطبيعة وغيرها . وكل هذه الأشعار آيات ناطقات بالقوة والتألق والاقتدار .

ولم أجد لحافظ ما راعنى من قصائد الوصف إلا قصيدتين اثنتين هما قصيدته فى وصف حريق ميت غمر ، وقصيدته فى رحلته إلى إيطاليا . والقصيدة الأولى قالها سنة ١٩٠٢ حينما شب حريق مروع فى مدينة ميت غمر فى أول مايو سنة ١٩٠٢ وظل مندلع الأوار ثمانية أيام ، وقد أتت النار على معظم المدينة وهلك بسببها خلق كثيرون . وقد تألفت جماعة من الأعيان لتخفيف ويلات المنكوبين ، وتسابق أهل الخير لمساعدتهم ، وقامت الصحف تحض الناس على مد يد المعونة إليهم . وقد نظم حافظ قصيدته فى وصف هذه الكارثة ، واستهلها بقوله :

سائلوا الليـــل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى[1]

وفيها يُبرز لنا هذا الخطب فى صورة حية تنفطر لها القلوب أسًى ، ولا تفقد روعتها على مر السنين ، لأنها صورة صادقة رسمها من ذَوْب نفسه وخلجات إحساسه . وقد أعانه على هذا التصوير البديع ما عاناه فى صباه وفى شبابه الأول من ألوان البؤس والشقاء ، يقول فى وصف الكارثة :

كيف أمسى رضيعهم فقَدَ الأ مّ وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتجـــارى
ربِّ إن القضاء أنحى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومُرِ النـــار أن تكف أذاها ومُرِ الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى هذه النار ؟ فهى تشكو الأوارا
أشعلتْ فحمةَ الدياجى فباتت تملأ الأرض والسماءَ شرارا
غشيتْهم والنحس يجرى يمينًا ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
فأغارت وأوجهُ القوم بيضٌ ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلتْ دورهم فلما استقلّتْ لم تغادر صغارهم والكبـــارا
أخرجتْهم من الديار عُـــراةً حذر الموت يطلبون الفـــرارا

---

(١) الديوان ١/٢٥٠ .

يلبسون الظلام حتى إذا ما أقبل الصبح يلبسون النهارا

فالشاعر استمد من ينابيع آلامه ما بثّ الروح فى هذه الصورة . ولذلك نراه ينتفض ثائراً على المجتمع ونظامه الجائر ، وكأنما كان يترقب مناسبة ليطلق ثورته على الفوارق الاجتماعية فيقول :

أيها الرافلون فى حُلل الوشـ ـى يَجُرّون للذيول افتخـارا
إن فوق العراء قومًا جياعًا يتـوارونْ ذلّـةً وانكسارا

ويندد بسراة القوم الذين يبسطون أيديهم بالأموال على ملذاتهم وفى أفراحهم وهم غافلون عن مواطنيهم البائسين الذين تكرثهم الخطوب ولا يجدون من يُقيل عثراتهم :

قد شهدنا بالأمس فى مصر عُرسًا[1] مـلأ العين والفـؤاد ابتهارا
سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نُضـارا

وهذه القصيدة قد بزّتْ — فى نظرى — قصيدة شوقى التى قالها فى وصف هذه الكارثة ومطلعها :

الله يحكم فى المـدائن والقـرى ياميت غمر خذى القضاء كما جرى[2]

لأن الحال قد صادفت اتفاقًا فى نفس حافظ ، فصوّر المكروبين أصدق تصوير . أما شوقى فلم يحس وقع البؤس من نفوس المنكوبين لأنه لم يذقه طيلة حياته ، فلم يحس فى نفسه الألم الذى أحسه زميله ، ولم يستطع أن يخفى ذلك فقال :

ما زلتُ أسمع بالشقاء رواية حتى رأيتُ بك الشقاءَ مصوّرا

ولذلك كانت ثورته فى قصيدته هذه باردة كالثلج ، لأنها لم تكن صادرة من أعماق نفس تحسّ شقاء البائسين وآلام المرزوئين . وقد أشار إلى ذلك العالم الأديب الأستاذ إسماعيل مظهر فقال : فحيث تشتد ثورة نفسه (أى شوقى)

---

(١) يشير حافظ إلى عرس زواج الأمير حيدر رشدى فاضل من كريمة على فهمى باشا ، وقد أقيم مهرجان عظيم بدار والد العروس مكث ثلاث ليال من ٣٠ إبريل إلى ٢ مايو سنة ١٩٠٢ ، وقد تحدثت البلاد كلها بهذا العرس فى ذلك الحين .

(٢) الشوقيات : ٢/٤٤ .

تسمو معانيه وتقوى شاعريته ، فإذا خبت نارها هبطت المعانى والشاعرية معاً إلى منزلة لم ينزل إليها الكثيرون من شعراء هذا العصر »[١] . ولهذا نراه يعرِّج على الحكَم فيوصى بالصبر على المصيبة ، ويذكر أن كثيراً من المدن فى عصور التاريخ قد أصابه الدمار والتخريب . وهذا من عمل العقل الخالص لا من عمل العاطفة التى لم تتجاوب مع هذه الرزية الجسيمة .

وقصيدة شوقى — فيما أرى — تفضُل قصيدة حافظ فى جمال السبك وحسن الصياغة وبراعة النظم ، ولكنها تتخلف عنها فى روعة التصوير وصدق الإحساس.

أما قصيدة حافظ التى يصف فيها رحلته إلى إيطاليا فهى الأخرى زاخرة بالحياة رائعة التصوير ، وفيها يتجلى أثر هذه الرحلة فى نفس حافظ مما يدل على أنه كان فى مكنته أن يأتى بالوصف الرائع لو أتيح له ما أتيح لشوقى من مشاهد متنوعة اختزنها خياله فى رحلاته الكثيرة . وقد استّهلها بقوله :

عاصف يرتمى وبحـــر يُغـــير ۝ أنـــا بالله منهمـــا مستجير[٢]

ولعل من أخص ما تمتاز به هذه القصيدة مواءمة الألفاظ للمعانى مواءمةً تدل على براعة فى التصوير ودقة فى التعبير . انظر إليه وهو يصف ثورة البحر واصطخاب الأمواج وزمجرة الرياح العاتية :

وكأن الأمواج ، وهى تـــوالى ۝ محنقات ، أشجانُ نفس تثور
أزبدتْ ثم جرجرتْ ثم ثارت ۝ ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفتْ مثل الجبال على الفُـ ۝ ـلْك وللفلك عزمة لا تخـــور

ويصف السفينة وهى تتأرجح على أديم الدأماء وكأنها ريشة فى مهب الرياح فيقول :

تتراى بجـــوجـــؤ لا يبـــالى ۝ أمياهٌ تخوطه أم صخـــور ؟
أزعج البحرُ جانبيها من الشـ ۝ ـد فجنبٌ يعلو وجنبٌ يغور

---

(١) انظر كتاب « تاريخ الفكر العربى » لإسماعيل مظهر (أحمد شوقى ودلالة شعره على نفسيته) ص ١٤٨ .

(٢) الديوان ١/٢٢٧ .

وهو آناً ينحطّ من عُلوٍ كالسيـ ـل وآناً يحوطها منه سـور
وهى تزورّ كالجـواد إذا ما ساقه للطعان ندبٌ جسور

ثم يصوّر جزع المسافرين وهلعهم وقد فغر الحِمام فاه يريد أن يطويهم فى جوفه :

وعليهـا نفوسـنا خـائراتٌ جازعاتٌ كادت شعاعاً تطير
فى ثنايا الأمواج والزبـد المنـ ـدوف لاحت أكفاننا والقبور
مرّ يوم وبعض يوم علينـا والمنايا إلى النفـوس تشير

وتمتد إليهم يد الله فيهدأ البحر وتصبح الريح رُخاء، فيسكن جأشهم ويُفرخ روعهم وتجد الطمأنينة سبيلها إلى قلوبهم :

ثم طافت عنـاية الله بالفلـ ـك فزالت عمن تُقلّ الشرور
ملكتْ دفّة النجاة يـدُ اللـ ـه فسبحان من إليـه المصير
أمر البحرَ فاستكان وأمسى منه ذاك العبابُ وهو حصير

ثم يتخيل حافظ البحر رجلاً عاتياً تياهاً بجبروته وحوْله، فيخاطبه مبيّناً له أنه ضئيل جدًّا بجانب حول الله فى ملكوته :

أيها البحر لا يغرّنْك حـوْلٌ واتساعٌ وأنت خلق كبير
إنما أنت ذرّةٌ قد حوتـهـا ذرّة فى فضاء ربّى قـدور
إنما أنت قطرة فى إنـاء ليس يدرى مداه إلا القـدير

وبعد ذلك يأخذ الشاعر فى وصف مشاهد إيطاليا وما فيها من آثار وفنون تدل على أمجاد تليدة :

فيك يا مهبط الجمال فنون ليس فيها عن الكمال قصور
ودُمًى جمّع المحاسن فيهـا صُنعُ الكف عبقرىٌّ شهير
قد أُقيمت من الجماد ولكن من معانى الحياة فيها سطور

ثم يقارن بين إيطاليا ومصر من حيث جوهما وشمسهما وناسهما وأسباب الحياة فيهما ، ويرثى لإيطاليا — هذه البلاد الجميلة — تعرضها للبراكين التى تثور ضدهم الحين بعد الحين .

والقصيدة طويلة ورائعة ملأها حافظ بالحياة والحركة ، واختار لها الألفاظ المناسبة ليوفر لصوره جميع العناصر التى تجعلها حية معبّرة . ولعل السبب فى جودة هذه القصيدة أن حافظاً قد راعه ما شاهده فى أول رحلة له إلى أوربا ، ولعلها كانت الأولى والأخيرة .

هاتان القصيدتان هما — فى نظرى — خير ما نظم حافظ فى الوصف . أما سائر شعره الوصفى فهو — على قلته — غير جيد، خال من الحياة والجمال .

ولم يكن حافظ ذا خيال خصب قادر على الخلق والابتكار ، وقلما تجد له صورة تروعك وتستوقفك . وقد أراد أن يستعين بأحد المخترعات الحديثة فى خلق صورة بيانية فجاءت باهتة غير حية . . . اقرأ له قوله فى حبه للإمام :

كأن فؤادى إبرة قد تمغطستْ بحبك أنّى حُرّفتْ عنك تعطف

تجد صورة هزيلة يبدو فيها أثر الافتعال والتعمل . وأراد أن يتخيل قصة غزلية فى قصيدته الدالية التى يمدح بها البارودى[1] على نحو ما صنع عمر بن أبى ربيعة فى رائيته المشهورة فجاءت القصة ممسوخة مهلهلة كما أشرنا .

وأراد كذلك أن يضع قصة تمثيلية[2] يصف فيها ضرب الأسطول الطليانى لمدينة بيروت فلم يستطع أن يرسم الجو المناسب لها ، وجاءت التمثيلية ضعيفة ركيكة ، وسنشير إليها بشىء من التفصيل فى موضع آخر .

وإذا أراد أن يُجِدّ معنى يحسبه ذا قيمة أخرج لنا صورة مضطربة غير واضحة . ومن أمثلة ذلك قوله يعرّض بحزب تركيا الفتاة الذى شرّد أفرادَه السلطانُ عبد الحميد :

تقاذفهم أيدى الليـــالى كأنهم بها مثلٌ للناس فى القوم يُضرب[3]

فهو يشبههم فى تشرّدهم فى البلاد بالأمثال السائرة بين الناس من لسان إلى لسان . وهذا التشبيه — كما ترى — لا جمال فيه ، وكان الأخلق به أن يجعل

---

(١) الديوان ١/٧ .
(٢) الديوان ٢/٦٩ .
(٣) الديوان ١/١٥ .

سوء مغبّتهم – وقد أصبحت مضغة فى الأفواه – كالمثل الذى يجرى على كل لسان .

وكان ذوق حافظ وخياله لا يخلوان أحيانا من بعض الفساد والسقم ، ومن ذلك قوله عن مدينة (مكْدن) الصينية التى حدثت فيها الموقعة الفاصلة فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٥ وقد تخضبت أرضها بدماء الضحايا :

وأصبحت (مكدن) ياقوتة يغـــار منها الدر والجوهر[١]

فهذا ذوق فاسد ونفس خشنة رأت فى منظر الدماء ما يغار منه الدر والجوهر .

واقرأ له هذا التشبيه الذى يُغثّى النفس ، من رثائه للبارودى :

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه كأنه دسم فى جوف ممعود[٢]

أظن نفسك تتقزز اشمئزازا عندما تسمع هذا البيت .

وقد زين له خياله السقيم أن يقذف بالقطار من فوق الجسر ليحض الناس على بذل المال لجمعية رعاية الأطفال[٣] .

وعلى أية حال فقد قصّر خياله عن أن يحلّق عالياً فى السماء فيزجى إلى الفن صوراً رائعة. ونحن لا ننكر أن له صوراً جميلة ولكنها قليلة فى شعره . وما أصدق ما يقوله عنه صديقه الوفى الأستاذ أحمد محفوظ : «كان حافظ قريب الغور ، لا يضرب فى سموات الخيال بسهم بعيد الرمية ، ولا يحلّق إلا بأجنحة متكسرة »[٤] ، وما أشك فى أن إحساس حافظ بقصور خياله كان من الأمور التى دفعته إلى أن يعتمد فى تعبيره على متانة الأسلوب وجودة العبارة أكثر من اعتماده على الابتداع أو الخيال .

ويرجع نضوب خيال حافظ وضحالته إلى أمور ثلاثة :

الأول : أن ثقافته الغربية كانت ضئيلة تافهة ، ولو قد اتصل بها اتصالا

---

(١) الديوان ٢/١٠ .

(٢) الديوان ٢/١٣٩ .

(٣) اقرأ القصيدة فى الديوان ١/٢٨٣ .

(٤) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨٥ .

قوياً لنضج ذلك على شعره ، ولرأينا له الخيال المجنّح الذى يأتى بالرائع من الصور .

الثانى : أنه لم يعش فى أحضان النعمة كما عاش شوقى ، فلم يقع ناظراه على رائع المشاهد وفاخر الرياش ونفيس الآنية . ولا شك أن هذه الحياة المترفة كان لها أثرها البين فى خيال شوقى واتجاهاته الفنية .

الثالث : أنه كان قليل الأسفار والرحلات ، فلا نعرف عنه أنه بارح الديار المصرية إلا قليلا ، ولم يجاوز فى رحلاته الشرق العربى ، اللهم إلا رحلة واحدة يتيمة سافر فيها إلى أوربا سنة ١٩٢٣ وزار إيطاليا وفرنسا . وقد كانت قلة رحلاته سبباً فى ضيق خياله ، لأنه لم يشهد مناظر كثيرة متباينة ولم ير بيئات مختلفة للطبيعة والناس .

٣

المدح

إن فن المديح من الفنون الشعرية التى لا يخلو منها عصر من عصور الأدب وهو فن له قيمته وله خطره ، ويعتبره بعض الأدباء من أفضل المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأدب فى وقت واحد . ويقول الأستاذ عباس العقاد : « فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيد فى مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه . ولا ضير على الأدب أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التى يعرفها الغربيون والشرقيون »[1] . وكل ما هنالك أن يكون الشاعر مؤمناً بعظمة ممدوحه فيسوق إليه نضيد المديح ، غير مغلوب على أمره وغير مدفوع إلى ذلك رهبةً أو طمعاً فى عاجل جزاء . وهذا النوع من المديح — فى

(١) شعراء مصر ص ١٩ .

نظرى — تمجيدٌ للعبقرية والعظمة ، واعترافٌ بما لهؤلاء العظماء من فضل على أوطانهم وعلى الإنسانية جمعاء .

وقد أكثر حافظ من المدح ، وكان مدحه موجهاً إلى الخديو وإلى العظماء والكبراء فى مصر وفى غير مصر .

وحافظ فى مديحه سائر على سَنَن القدماء، فلم يكن — فى الغالب — مجدّداً ولا مبتكراً ، بل كان مديحه كالثوب الذى يصح أن يخلعه على كل ممدوح . فممدوحه فخر البلاد والإنسانية ، وهو وضّاح الجبين ، مشرق الطلعة ، وهو متدفق البيان . سبّاق إلى العلا، محسَّد من الناس . ثم هو كالليث يحلّ عرينه إذا آب من سفر . ويكاد مدحه كله يدور حول هذه المعانى ولا يبعد عنها كثيراً . وحسبى أن أسوق مثلا واحداً :

أنشد حافظ بين يدى المغفور له سعد زغلول قصيدة على أثر قدومه من بلدته « مسجد وصيف » إلى القاهرة على الباخرة « دندرة » سنة ١٩٢٦ استهلها بقوله :

ما بال « دندرةٍ » تميس تهـادياً ... ميس العروس مشتْ على إستبرق[1]

وفيها يقول :

ألعلها والتّيــه يثنى عِطفهــا ... حملت ركابَ زعيم قلب المشرق
إنى أرى نوراً يفيض وطلعــة ... قــد زانها وضّحُ الجبــين المشرق
هــذا زعيم النيــل حــلّ عرينه ... بعد الغياب فيا وفودُ تدفقى
كم أزمة مرتْ بنــا فاجتاحها ... (سعدٌ) بسيل بيــانه المتدفق

وكان حافظ موفقاً إلى حدّ ما فى مدحه الذى ينظمه فى المناسبات كالتهنئة بالعيد ، أو بالأوبة من سفر ، أو بالترقية إلى منصب ، أو بالإبلال من مرض ، وبخاصة إذا كانت تربطه بالممدوح وشائج من الحب الصادق وأواصر من التقدير والإكبار ، كمدائحه فى الأستاذ الإمام محمد عبده وسامى البارودى . واقرأ قوله فى تهنئة الإمام بمنصب الإفتاء :

---

(١) الديوان ١/١١٨ .

رأيتك والأبصار حولك خشّع ... فقلتُ (أبو حفص) ببرديك أم (على)
وخفّضتُ من حزنى على مجد أمة ... تداركتَها والخطب للخطب يعتلى
طلعتَ بها باليمن خير مطلع ... وكنتَ لها فى الفوز قِدْحَ (ابن مقبل)
وجرّدتَ للفتيا حسام عزيمة ... بحدّيه آيات الكتاب المنزل
محوْتَ به فى الدين كل ضلالة ... وأثبتَ ما أثبتَ غير مضلل[١]

وقوله يمدحه ويصف حضرته :

إنى لأبصر فى أثناء بردته ... نوراً به تهتدى للحق ضُلّال
حللتُ داراً بها تُتلى مناقبه ... ببابها ازدحمت للناس آمال
لى كل حوْلٍ لبيت الجاه منتجع ... كما تُشدّ لبيت الله أرحال[٢]

وقوله يهنئه بعودته من سياحته فى بلاد الجزائر :

بكّرا صاحبيّ يوم الإياب ... وقفا (بعين شمس) قفا بى
إنى والذى يرى ما بنفسى ... لمشوق لظلّ تلك الرحاب
يا أميناً على الحقيقة والإفـ ... ـتاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام فى موطن الرأ ... ى ونعم الإمام فى المحراب[٣]

واقرأ قوله فى مدح البارودى :

سلبتَ بحار الأرض درّ كنوزها ... فأمستْ بحار الشعر للدر موردا
وصيرتَ منثور الكواكب فى الدجى ... نظيماً بأسلاك المعانى منضدا
وجئت بأبيات من الشعر فُصّلت ... إذا ما تلوْها أُلقىَ الناس سجدا
إذا ذكروا منه النسيب رأيتنا ... وداعى الهوى منا أقام وأقعدا
وإن ذكروا منه الحماس حسبتنا ... نرى الصارم المخضوب خداً مورّدا
ولو أنىَ نافرتُ دهرى وأهله ... بفخرك ما أبقيتُ فى الناس سيدا[٤]

---

(١) الديوان ١/٤ ، وابن مقبل رجل من جاهلية العرب فاز قدحه سبعين مرة متوالية ، ويضرب به المثل فى حسن الأثر والفوز .
(٢) الديوان ١/٦ .
(٣) الديوان ١/٢٣ .
(٤) الديوان ١/٧ .

فهذه المدائح وأمثالها فيها جودة وفيها لباقة وفيها صدق ، وذلك لأنها صادرة عن نفس صادقة تحس ما تقول وتعيه . وتستطيع أنت أن تدرك من المدحة حدود ممدوحه ومعالمه إلى حد ما .

بيد أن لحافظ مدائح أخرى لم تكن وليدة الفهم الدقيق والدرس الواعى للممدوح ، ولم يدفع الشاعرَ إلى نظمها حبٌّ غامر أو إعجاب صادق. ولذلك نراه يستعير فى الغالب بعض المعانى القديمة ويرصها رصًّا من غير أن تستبين منها ناحية الفوقان فى الممدوح . وسر ذلك — فيما أرى — أنه كان قليل الميل إلى القراءة، ويذكر المرحوم الدكتور أحمد أمين — كما أشرنا — أن بعض أصدقاء حافظ حكى روايةً عنه أنه لم يقرأ كتاب« تحرير المرأة » لقاسم أمين وإن كان قال فيه شعرا[١] .

ولما ترجم الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد كتاب الأخلاق لأرسطو استقبله الشعراء فى ذلك العهد بالتقدير والإطراء، ومن بينهم شاعرنا حافظ إبراهيم . وقد زعم حافظ فى قصيدته أنه قرأ الكتاب فقال :

يا كاسى الأخـلاق فى بلد عن الأخلاق عارى
إنى قـرأت كتـابـه بـين الخشـوع والاعتبـار
فـإذا المـؤلف مـاثل جنب المـترجم فى إطـار
وعليهمـا نـور يفيـ ـض من المهابة والوقار[٢]

ويجزم أستاذنا الدكتور طه حسين بأن حافظاً لم يقرأ الكتاب ولم يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد[٣] . والظاهر أن حافظاً قد فُتن بكلمة الأخلاق وخُيِّل إليه — كما يُفهم من قصيدته — أن أرسطو قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه، وأن المترجم كان يبغى تقويم أخلاق بنى قومه يوم ترجمه . ولو قد قرأ الكتاب لأدرك أن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٣ .
(٢) الديوان ١/ ١١٤ .
(٣) حافظ وشوقى لطه حسين ص ١٢٨ .

والإرشاد . ولم يكن كتاب أرسطو فى الأخلاق صالحاً لأن يكون مرجعاً للوعاظ والمرشدين يوماً ما ، وإنما هو مرجع قيم لدراسة علم الأخلاق يُدرس لطلاب الجامعات .

وقد زلّ حافظ زلة أخرى فى هذه القصيدة ، إذ ظن أن كتاب « السياسة » لأرسطو يعيننا على حل المسألة المصرية مع الإنجليز ، ولهذا آثره على كتاب « الكون والفساد » الذى كان يترجمه الأستاذ لطفى السيد وقتئذ ، وطلب إلى المترجم أن يعجل بترجمته قبل (الكون والفساد) فقال :

إنّا إلى (كتب السيا سة) يا حكيم على أوار
عجّل بها قبل (الفسا د) وقبل عادية البوار
إنا نناضل أمة أقطابها أُسْدٌ ضوارى
أمست سياستهم كطلّسْـ ـمٍ يحيّر كل قارى

ولكن كتاب (السياسة) هذا لا يجدى فى معالجة السياسة الإنجليزية ، ولا يقدم ولا يؤخر فى حل المسألة المصرية .

وأنت حين تقرأ قصيدته التى نظمها فى ذكرى شكسبير لا تستطيع أن تعرف منها شكسبير ولا فلسفته العميقة ولا وصفه لخوالج النفس البشرية وأحاسيسها. وكل ما تدركه منها أن حافظاً يمدح شاعراً عظيماً خليقاً بالمدح ليس غير . وليس فى القصيدة بيت واحد يفضى إلى معرفة بشكسبير أكثر مما تدلّ عليه الإعلانات على واجهات دور الخيالة والمسارح .

يقول حافظ فى مطلع القصيدة :

يحييك من أرض الكنانة شاعر ... شغوف بقول العبقريين مغرم
ويطربه فى يوم ذكراك أن مشت ... إليك ملوك القول عُرْب وأعجم
نظرتَ بعين الغيب فى كل أمة ... وفى كل عصر ثم أنشأتَ تحكم
فلم تخطئْ المرمى ولا غرو أن دنت ... لك الغاية القصوى فإنك ملهَم[1]

---

(١) الديوان ١ / ٧٢ .

ثم يصف شعره مشيراً إلى بعض مسرحياته فيقول :

له قلم ماضى الشَّباة كأنما ... أقام بشقَّيْه القضاء المحتَّم
طهورٌ إذا ما دُنِّستَ كف كاتب ... وثَوْبٌ إذا ما قرّ فى الطرس مِرقْم
ولوعٌ بتصوير الطباع فلم يجزْ ... بعاطفة إلا حسبناه يرسم
أرانى فى (ماكبيث) للحقد صورة ... تكاد بها أحشاؤه تتضرّم
ومثّل فى (شيلوك) للبخل سحنة ... عليها غبارُ الهون والوجه أقتم
وأقعدنى عن وصف (همليت) حسنها ... وفى مثلها تعيا البراعة والفم
دع السحر فى (روميو) و (جولييت) إنما ... يحسّ بما فيها الأديب المتيم
أتاهم بشعر عبقرىّ كأنه ... سطور من الإنجيل تُتلى وتكرَم
ندىٌّ على الأيام يزداد نضرةً ... ويزداد فيها جدّة وهو يقدُم

فأنت ترى فى هذا الشعر أنه لم يقرأ شكسبير قراءة دقيقة واعية ، ولم ينفعل مع شكسبير انفعال الشاعر الذى تهتاج خوالجه حين يستبطن أحاسيس شكسبير ؛ هذا الفنان العظيم الذى خلق مئات من شخوص الرجال والنساء ومئات من مواقف الأفراد والجماعات . فحافظ قد عجز عن أن يستكنه مواطن العظمة فى شاعر الإنسانية الأكبر . وهذا الذى قاله حافظ عن شكسبير يستطيع أن يقوله إنسان كسائر الناس قرأ إعلانات المسارح عن تلك الروايات .

أما مدائحه للخديو والملك فؤاد وسائر الكبراء ، فلا يتجاوز فيها المعانى المألوفة التى أشرنا إليها .

٤

الرثاء

لعل فن الرثاء أهم فنون شعر حافظ ، بل إنه الفن الذى برّ فيه شعراء عصره وشآهم . وأنت تحسّ فى رثاء حافظ بصدق العاطفة ووفرة الإحساس ، لأنه كان وفيًّا غاية الوفاء. فإذا فقد صديقاً جزعت نفسه أشد جزع ، وانطلق لسانه

يعبر عن ذلك فى ألفاظ كأنها نسيج ثوب من الحزن لُفّت به نفسه. وترجع براعة حافظ فى الرثاء إلى أمرين :

الأول : أنه كان قوى الحس ، ذا نفس راضية لا تستبقى من صلاتها بالناس إلا الخير ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى للإحسان والبر جزاء يعدل الإشادة به والثناء عليه .

الثانى : أنه كان منطوياً على شىء غير قليل من الحزن والأسى بسبب ما عاناه فى حياته من بؤس ومتربة .

وليس من شك فى أن يُتم حافظ المبكر قد طبعه بطابع الحزن ، وحاربته الأيام فى فجر حياته ففاضت نفسه بطوفان من الحزن والكدر ، وكان إذا خلا إلى نفسه أو إلى صديق له شكا إليه بثه وخفايا نفسه .

وقد أصبح الحزن قطعة من نفسه حتى إنه كان لا يستجيب لنداء القريض إلا إذا كان محزوناً . ويحكى عنه بعض أصدقائه أنه كان يقول : « لا يطيب لى نظم الشعر إلا إذا كنت حزينا »[1] . ويقول الأستاذ أحمد أمين : «خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة ، فأما فرحٌ بالطبيعة وفرحٌ بنفسه ونحو ذلك مما ينبعث عن عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال فى شعره »[2] .

وكان حافظ سريع التأثر ، شديد الانفعال . وقد تركت فى نفسه حياته الأولى ندوبَ حزن عميق لا تلبث أن تنغر إذا تخطف الموت واحداً من أصدقائه أو من العظماء الذين يُجِلّهم. ولعل حافظاً كان يُحس فى قرارة نفسه أن أصحابه قد أخلصوا له الود غير طامعين فى جاه أو نشَب ، لأنه كان رجلا فقيراً لا حول له ولا طول ، فهم أحبوه لأنه خليق بحبهم وتقديرهم . فإذا فقد واحداً من هؤلاء فإنما يفقد قلبا يزخر له بالحب والتقدير .

هذا إلى أن حافظاً — رحمه الله — كان شديد الخوف من الموت وبخاصة حينما تقدمت به السن ، فكان يتوهم المرض ويعتقد أن الموت قريب منه ، فإذا

(١) ذكرى الشاعرين ص ٦٤ .
(٢) مقدمة الديوان ص ٣٩ .

قضى له حبيب أو صديق ارتاع لذلك وأيقن أنه نذير بقرب منيته. . . يقول فى ذكرى الإمام محمد عبده سنة ١٩٢٢ من قصيدة ضمنها رثاءه للمرحوم حفنى ناصف :

آذنتْ شمس حياتى بمغيب ... ودنا المنهل يا نفس فطيبى
قد مضى (حفنى) وهذا يومنا ... يتدانى فاستثيبى وأنيبى
اذكرى الموت لدى النوم ولا ... تغفلى ذكرته عند الهبوب
راعنى فقْد شبابى وأنا ... لا أُراع اليوم من فقد مشيبى
حنّ جنباى إلى برْد الثرى ... حيث أنسى من عدو وحبيب
قد وقفنا ستة نبكى على ... عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فقضوْا ... هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعاً فقضوا ... باتفاق فى منـاياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولّى عهدهم ... حاضر اللوعة موصول النحيب[1]

ومن أجل هذا كانت الكوارث تقع من نفس حافظ أشد وقع وتثير فيها أحاسيس لذّاعة من الألم الممض واللوعة المريرة. وكان لسانه ينطلق بالشعر فى تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد، ويثير فى نفوس الناس كثيراً من الجزع والحزن .

ونحن نستشف من رثاء حافظ أنه كان يجد الرثاء ديْناً فى عنقه نحو أحبابه الذاهبين وحقّاً واجباً لهم ، فهو يعدّ رثاءه وفاءً لهؤلاء الراحلين ويعتذر إذا لم يبلغ فيه ما يريد ويستنجد بدموعه إذا لم يسعفه القريض ولهذا كان رثاؤه من النوع الإنسانى البسيط الذى يصدر عن نفس بسيطة تُحس لذع الحزن ولا تستطيع أن تخفيه . وهذا يفسر لنا خلو هذا الرثاء من الفلسفة والتفلسف اللذين يعتمدان على الأناة والعقل وعمق التفكير .

وما أحسب أنى أعرف شاعراً من شعراء العربية فى العصر الحديث قد بلغ فى الرثاء ما بلغه حافظ . فكثير منهم يرثون فيحسنون الرثاء ويجيدون وصف الفقيد

---

(١) الديوان ٢/٢٠٣ .

الراحل وتعديد خلاله ومآثره، ويصورون ذلك كله تصويراً يلذ العقول والأسماع، ولكنهم لا يثيرون ما فى النفوس من عواطف الحزن الكامنة . وسبب ذلك أن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق وينوحون ولكن عن غير لوعة محرقة . فهم يرثون لأنهم يفهمون أن الرثاء فن من فنون الشعر يجب أن يشاركوا فيه كارهين أو راضين .

أما حافظ فكان يرثى فى صدق وحرارة لأنه يحزن ويتفجع ، ولأن نفسه كانت بريئة من الضغينة والحقد .

وقد أتيح لحافظ أن يكون وثيق الصلة بهؤلاء الأفذاذ الذين ظهروا على مسرح السياسة المصرية والمجتمع المصرى . وكانت صلته بهم صافية خالية من قيود الكلفة والتزمت .

وتتجلى براعة حافظ فى الرثاء فى أنه نقله من مسألة فردية إلى مسألة عامة ، فموت الإمام محمد عبده خطبٌ فادح رُزئت به مصر والعالم الإسلامى ، وموت مصطفى كامل كارثة على مصر والوطنية ، وموت سعد زغلول رزء أصيبت به الزعامة الحقة . وهو يبين ذلك بعد أن يسجل للفقيد شمائله وميزاته الخاصة ويصوره الصورة الكاملة .

وأنت تحس حين تقرأ رثاء حافظ لعظماء الأمة بأنه صورة صادقة للجزع ونارٌ ملتهبة للوعة التى لا حد لها، وتشعر أن قلب الشعب يخفق ألماً ، وأن نفسه تضطرم أسى وحزناً. وقد شهد له بالبراعة فى الرثاء أمير الشعراء شوقى، وكان يؤثر أن يقضى نحبه قبله حتى يلقى منه أوفى الرثاء، فيقول فى مستهل رثائه إياه:

قد كنت أوثر أن تقـول رثائى   يا منصف المـوتى من الأحياء[1]

فلا عجب إذا كان شعر الرثاء عند حافظ غزيراً وفيراً ، وقد أحس هو بذلك فقال :

إذا تصفحتَ ديـوانى لتقـرأنى   وجدْتَ شعر المراثى نصف ديوانى[2]

وأول ما نلحظه فى رثاء حافظ أنه رثاء بالمعنى الإنسانى الواضح : حزنٌ غامر

---

(١) الشوقيات : ٣/٢٤ .

(٢) الديوان ١/١٣٣ .

تتنزى به نفس الشاعر يختلف قوة وضعفاً باختلاف صلة الشاعر بالمرثى وباختلاف ما تركه الفقيد من آثار فى ميادين الوطنية أو الإصلاح أو العلم ، وتبيانٌ لخلال الشاعر وصفاته الكريمة ، وذكرٌ يهصر القلب للأيام المواضى التى نعم فيها الشاعر بصداقة الفقيد ، وشجاً يتجدد كلما عدت المنية على صديق أو زعيم أو حبيب .

وأقوى ما يكون هذا الطابع حين يبكى الشاعر عظيماً من العظماء الذين اتصل بهم اتصالا وثيقاً وتلمذ عليهم وغمروه بعطفهم وحدبهم . فإذا رثى الإمام محمد عبده بيّن لك فجيعة الدين والعلم والإصلاح فيه ، وصوّر لك روائع مواقفه وآثاره ، وجسامة الخطب الذى أصاب المسلمين فى سويداء قلوبهم ، وكأنه بذلك يعلّمهم كيف يجدون لذع الحزن وألم الفجيعة . ولم ينس حافظ أن يقفو آثار القدماء فى تعديد مآثر الإمام ومفاخره فى لفظه رصين وعبارات جزلة كما عُرف عنه . وقد استهل حافظ رثاءه للإمام بهذه الأبيات :

سلامٌ على الإسلام بعد محمد ... سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا ... على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوا لهفى والقبر بينى وبينه ... على نظرة من تلكم النظرات
وقفتُ عليه حاسر الرأس خاشعاً ... كأنى حيال القبر فى عرفات
لقد جهلوا قدْر الإمام فأودعوا ... تجاليده فى موحش بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا ... بخير بقاع الأرض خير رفات[1]

فالمعانى — كما ترى — تكاد تكون مألوفة تداولها غيره من الشعراء ، ولكن الأبيات تملأ النفوس والقلوب أسى وكمداً . فقد كان حافظ ملتاعاً لفقد أستاذه ووليه ، فجعل من هذا الشعر العادى حزناً مريراً .

وحافظ يصور ذلك الجزع وكأنه طوفان من الحزن يأتى على كل نفس .

---

(١) الديوان ٢/١٤٤ .

فقد أصيب الدين بثغرة ينفذ منها المتحاملون عليه ، لأن حاميه الأكبر قد قضى :

تباركتَ هذا الدينُ دين محمد أيُتْرَك فى الدنيا بغير حُماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات

ويبين الفراغ الذى تركه الإمام فى يأس يخترم النفوس :

مددنا إلى الأعلام بعدك راحنا فرُدّت إلى أعطافنا صَفِرات
وجالت بنا تبغى سواك عيونُنا فعدْن وآثرْن العمى شرِقات

وما أروع حافظاً وهو يصوّر فجيعة الشرق كله من أقصاه إلى أقصاه فى فقد الإمام :

بكى الشرق فارتجّت له الأرض رجّة وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب وفى تونس ما شئتَ من زفرات
بكى عالَمُ الإسلام عالِمَ عصره سراجَ الدياجى هادمَ الشبهات

ويختم حافظ مرثيته بأبيات يبين فيها فضل الإمام الجليل عليه وعلى كل من اتصل به ، فكلهم مغمور بفضله ، مكنوف بعظيم إحسانه . وفيها يتمثّل الحزن الصادق والاعتراف بالجميل الذى عُرِف به حافظ ، وفيها يتبيّن ما كان عليه الإمام من تقوى وورع وكرم وخير وبرّ :

فيا منزلا فى عين شمس أظلّنى وأرغم حسادى وغمّ عداتى
دعائمه التقوى وآساسه الهدى وفيه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً عبوس المغانى مقفر العرَصات ؟
لقد كنتَ مقصود الجوانب آهلا تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابةَ أرزاق ومهبط حكمة ومطلعَ أنوار وكنز عظات

فهذه القصيدة خالدة قد استمدت خلودها من الراثى والمرثى ، فقد كان حافظ صادقاً فى وفائه وفى حزنه ولوعته ، وكانت حياة الإمام نموذجاً بليغاً للمصلحين المخلصين الذين ينشدون لدينهم العزة والقوة ولوطنهم المجد والعظمة .

وقد استطاع حافظ أن يصور هذه الحياة تصويراً رائعاً وأن يبين الخسارة الفادحة التى أصابت الدين والإصلاح والشرق جميعا .. وقد رثى كثير من الشعراء الإمام ، ولكننا لا نظفر من هذه المراثى بمثل ما نظفر به من مرثية حافظ صدق شعور وروعة تصوير ، فهى نغمات حزينة متلاحقة ، وكأن كل مقطع فى البيت شهقة مكروب أو أنة مفجوع .

وظل حافظ يبكى أستاذه فى كل مناسبة ويعدد مآثره وأفضاله فى كل فرصة حتى لبى نداء ربه . فكان إذا رثى أحداً بعده انفتل من رثائه إلى بكاء الإمام ، وذكر الفراغ الذى ظل شاغراً بعده لم يستطع أحد أن يملأه .

وبراعة حافظ تظهر فى رثاء الأعلام والعظماء الذين تكون الفجيعة فيهم عامة لا تختص بالجزع عليهم طائفة دون أخرى ، والذين يتركون أثراً خالداً فى حياة أمتهم . فقد رثى أستاذه البارودى فى لفظ رصين جزل يعيد إلينا ديباجة الرثاء القديم ، ولكنه لم يستطع أن يمس النفوس بهذا الحزن اللاذع وهذه اللوعة المحرقة . وعلة ذلك أن موت البارودى لم يكن كارثة شعبية ، أو لعل الناس — على أصح تعبير — لم يروه فى ذلك الحين كذلك ، وإنما كان موته رُزءاً للأدباء بنوع خاص . وليس من شك فى أن حافظاً قد حزن لفقد أستاذه إمام الشعراء حزناً شديداً بسبب ما كان عليه من وفاء منقطع النظير . وقد اتهمه الدكتور طه حسين بأنه قلد فى رثائه قصيدة مسلم بن الوليد المعروفة :

* لا تدع بى الشوق إنى غير معمود *

وأنا لا أنكر أن حافظاً قد اتفق مع مسلم فى البحر والقافية والروى ، ولا أنكر أنه — وهو ينظم رثاءه — كان يستعرض بذاكرته القوية قصيدة الشاعر القديم . ولكنه لم يكن مقلداً بالمعنى الذى يقصده الدكتور طه ، فقد جاءت قصيدته مختلفة اختلافاً بيناً فى معانيها عن قصيدة مسلم ، فضلا عن أنها تعطينا ملامح واضحة للبارودى . وقد استهلها حافظ بقوله :

ردوا علىّ بيانى بعد « محمود » إنى عييتُ وأعيا الشعرُ مجهودى
ما للبلاغة غضبى لا تطاوعنى وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

ظنّتْ سكوتيَ صفحاً عن مودته فأسلمتْني إلى همٍّ وتسهيد
ولو دَرَتْ أن هذا الخطب أفحمني لأطلقتْ من لساني كل معقود(١)

ثم يمثل لنا الشاعر المرثى تمثيلا يوضح لنا الجوانب اللامعة فى البارودى ، بحيث لو سمعه أى إنسان لعرف شخص المرثى فيقول :

لبّيْك يا مؤنس الموتى وموحشنا يا فارس الشعر والهيجاء والجود
لبيك يا شاعراً ضنّ الزمان به على النُّهى والقوافى والأناشيد
لبيك يا خير مَنْ هزّ اليراع ومن هزّ الحسام ومن لبّى ومن نُودى
إن هُدّ ركنُك منكوباً فقد رفعتْ لك الفضيلةُ ركناً غير مهدود
كنتَ الوزير وكنتَ المستعان به وكان همُّك همَّ القادة الصيد

ويأخذ حافظ فى تعديد بعض مواقف البارودى المشهورة فى ميادين القتال :

كم وقفة لك والأبطال طائرة والحرب تضرب صنديداً بصنديد
تقول للنفس إن جاشت إليك بها هذا مجالك سودى فيه أو بيدى
نسختَ (يوم كريد) كل ما نقلوا فى يوم (ذى قار) عن (هانى بن مسعود)
نظمتَ أعداك فى سلك الفناء به على رَوِيّ ولكن غير معهود
كأنهم كَلِمٌ والموت قافية يَرمى به عربيٌّ غيرُ رعديد

ويمضى حافظ فى القصيدة على هذا المنوال . ولست أشك فى أنه كان محزوناً لفقد أستاذه البارودى ، ولكنه لم يبلغ من الإجادة ما بلغه فى رثاء عظماء الأمة الذين تركوا صيتاً مدوّيا ، لأنه لم يُثر حزنَ أحد معه من بنى وطنه على البارودى اللهم إلا طائفة الشعراء والأدباء .

وقد اكتسب رثاء حافظ لعظماء الأمة لوناً بارعاً من الخطابة كان له فعل السحر فى نفوس الناس . ولو قرأت مراثيه للزعيم مصطفى كامل لأدركت روعة تصويره لحزن الشعب وأساه ، وذلك ناجم من عمق إحساسه بفداحة الرزء كما صنع مع الإمام محمد عبده ، لأن الأول كان عظيماً من عظماء الدين وعلماً من أعلام النهضة الفكرية ومصلحاً اجتماعيًّا خطيراً . وكان مصطفى زعيماً سياسيًّا أيقظ الأمة

(١) الديوان ٢/١٣٩ .

من سُباتها وملأ نفوسها أملاً ورجاءً . وكان حافظ فى رثائهما ينطق بألسنة الجماهير المحزونة .

وقد رثى حافظ الزعيم مصطفى كامل بثلاث قصائد ، وكل واحدة منها كانت قطعة من نفسه المكروبة التى هزها المصاب . فقد كان صديقاً حميماً لمصطفى كامل برغم صلاته بخصومه السياسيين ، وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعر حافظ ، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرّظه فى جريدة « اللواء » تقريظاً يدل على تقديره له[1] .

وقد ألقى حافظ القصيدة الأولى على قبر الزعيم واستهلها بقوله :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمـــة ... فكبِّرْ وهلِّلْ والق ضيفك جاثيا[2]

ولعل جسامة الخطب هى التى دفعته إلى أن يستهلّ القصيدة بهذه المبالغة المسرفة ، وهو يصوّر فداحة المصاب فيقول :

عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيد العـــلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبرُ لو أنا فقدناه وحـــده ... لكان التأسّى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدْنا كل شىء بفقـــده ... وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيـــا
فيا ســـائلى أين المـــروءة والوفـــا ... وأين الحجا والرأى ؟ ويحك ها هيا
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صـــائح ... فقد أُسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعور وساقه ... إلى المجد فاستحيا النفوس البواليـــا

ويخاطب الفقيد مبيّناً أسى الشعب ولوعته ، ذاكراً فضل الفقيد فى إيقاظ الأمة من رقادها :

عليك ، وإلا ما لذا الحزن شاملاً ... وفيك ، وإلا ما لذا الشعب باكيا
وكنّا نيـــاماً حينما كنتَ ســـاهداً ... فأسهدتَنا حـــزناً وأمسيتَ غافيـــا
شهيدَ العلا ، لا زال صوتك بيننا ... يرنّ كما قد كان بالأمس داويـــا
يُهيب بنـــا : هذا بنـــاءٌ أقمتُه ... فلا تهـــدموا بالله ما كنتُ بانيا

---

(١) اللواء بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١ .
(٢) الديوان ٢/١٤٩ .

يصيح بنـــا : لا تُشعروا الناس أنني قضيتُ وأن الحيّ قد بـــات خاليا
يناشـــدنا بالله ألا تفـــرّقـــوا وكونوا رجالا لا تسرّوا الأعاديا

ويعاهد الفقيد على أننا سنظل أوفياء لمبادئه مقيمين على عهده :

أجـــلْ أيها الداعي إلى الخـــير إننا على العهد ما دمنا فنمْ أنت هانيا
بناؤك محـــفوظ وطيفك مـــائل وصوتك مسموع وإن كنت نائيا

ثم يخاطب مصطفى طالباً إليه أن يرخص لهم فى البكاء لأن الرزء فادح يستأهل الانتحاب ، فهذا مقامه :

عهدناك لا تبكى وتنكر أن يُـــرَى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخّص لنا اليوم البكاء وفى غد ترانا كما تهوى جبـــالا رواسيا
فيا نيلُ إن لم تجرِ بعد وفاتـــه دما أحمرًا لا كنت يا نيل جاريا

والقصيدة الثانية أنشدها فى ذكرى الأربعين ، ومطلعها :

نثروا عليك نوادى الأزهـــار وأتيتُ أنـــثر بينهم أشعارى[1]

وفيها يستعرض حافظ مواقف الفقيد وصلابته فى الحق . ومن أبدع ما فيها أنه يصور جنازة الفقيد تصويراً رائعاً ؛ يصوّر شعب مصر الوفى لزعمائه ومبلغ حزنه على زعيمه وقائد نهضته ، ويقدّم لذلك بأنه قد طاب نفساً لما رأى هذه الجموع الحاشدة تحفّ بنعش الفقيد تنتحب وتسكب الدمع الهتون :

عزّ القـــرار علىّ ليـــلة نعيـــه وشهدتُ موكبـــه فقـــرّ قـــرارى
شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ منه مراتب الأقـــدار
ورأيتُ كيف تفى الشعوب رجالها حقّ الولاء وواجب الإكبـــار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشّعٌ يمشون تحت « لوائك » السيار
خطّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أســـطار
آنـــاً يوالون الضجيـــج كأنهم ركبُ الحجيـــج بكعبـــة الزُّوّار
وتخالهم آنـــاً لفرط خشوعهم عنـــد المصلى ينصتـــون لقارى
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بـــين سيل دافق وشرار

(١) الديوان ٢/١٥١ .

أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى فيصدّنى متدفق التيار

وإنى لجدّ مفتون بهذه الأبيات لروعتها وجمال نظمها وحسن تصويرها :

أدرجْتَ فى العلَم الذى أصفيتَه منك الودادَ فكان خير شعار
علمان من فوق الرءوس كلاهما فى طيه سرٌّ من الأسرار
ناداهما داعى الفراق فأمسيا يتعانقان على شفير هارى
واهاً على تلك المواقف إنها كانت مواقف ليث غاب ضارى
لم يلْوه عنها الوعيدُ ولا ثنى من عزمه قولُ المريب : حذار
فاهنأ بمنزلك الجديد ونم به فى غبطة وانعم بخير جوار
واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما ضحّيتَ للأوطان من أوطار
نعم الجزاء ونعم ما بُلّغْتَه فى منزليك ونعم عقبى الدار

والقصيدة الثالثة أنشدها فى الحفل الذى أقيم عند قبره لإحياء ذكراه الأولى ومطلعها :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم[1]

وفيها يخاطب الفقيد الذى كان جذوة فخبت وحركة دائبة فسكنتْ :

يأيها النائم الهانى بمضجعه ليهنك النوم لا همٌّ ولا سقم
باتت تسائلنا فى كل نازلة عنك المنابر والقرطاس والقلم
تركتَ فينا فراغا ليس يشغله إلا أبيٌّ ذكىّ القلب مضطرم
منفرُ النوم سبّاقٌ لغايته آثاره عممٌ آماله أمم

ويصف عظمة الزعيم وعلوّ قدره وجلاله ، ويهيب بمواطنيه أن يقسموا على الذود عن مبادئه ، وإنه لقسم — لو علموا — عظيم :

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى روحاً يحفّ بها الإكبارُ والعظم
أرى جلالا ، أرى نوراً ، أرى ملكا أرى محيّا يحيّينا ويبتسم
الله أكبر ، هذا الوجه أعرفه هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غُضّوا العيون وحيّوه تحيته من القلوب إذا لم تُسْعد الكلِم

(١) الديوان ٢/١٦٠ .

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه فنحن فى موقف يحلو به القسم

ثم يخاطب الزعيم فى حماسة متقدة يستهديه ، ويصوّر ما يلاقيه المصريون من ظلم الإنجليز وضغطهم :

لبّيكَ نحن الألى حركْتَ أنفسهم لما سكنتَ ولما غالك العدم
جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا ونستمدّ ونستعدى ونحتكم
قيل : اسكتوا ، فسكتنا ثم أنطقنا عسفُ الجناة وأعلى صوتَنا الألم
قد اتّهمنا ولما نطّلبْ جللاً إن الضعيف على الحالين متّهم
إذا سكتنا تناجَوْا ، تلك عادتهم وإن نطقنا تنادوا : فتنة عمم
قد مرّ عام بنا والأمر يحزبنا آناً وآونة تنتابنا النّقم
فالناس فى شدة والدهر فى كَلَبٍ والعيش قد حار فيه الحاذق الفَهِم

وأخيرا يحث النشء على أن يسيروا فى الدرب الذى نهجه الفقيد حتى يُتمّوا ما بدأه :

يا أيها النشء سيروا فى طريقته وثابروا ، رَضِيَ الأعداء أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرته وكلكم (كامل) لو جازه السأم

وقد رثى حافظ الزعيم الشعبى الكبير « سعد زغلول » بقصيدة رائعة استمدت روعتها من شعبية الفقيد ، فجاءت مرثية قوية تصوّر حزن الشعب الشديد لفقد زعيمه العظيم ، مثل مراثيه فى الإمام محمد عبده والزعيم مصطفى كامل . وهو فى هذه المرثية أطول نفساً منه فى جميع مراثيه الأخرى ، وذلك لأن سعداً ناضل الإنجليز نضالاً عنيفاً واحتمل آلام النفى والاضطهاد وهو شيخ لوت السنون كفّه على العصا كما يقولون ، ومع ذلك لم تلنْ له قناة ولم تفتر له عزْمة ، وقد هبّت الأمة كلها عن بكرة أبيها تشدّ أزره شيباً وشباناً ، رجالا ونساء ، فكان بحق زعيماً شعبياً عظيماً اتجهت إليه النفوس وهى مفعمة بالأمل والرجاء . ولهذا كان حزن الأمة عليه بالغاً . هذا إلى أنه كان يغمر حافظاً بفيض رعايته ، وكان حافظ من خاصة جُلاّسه وسُمّاره . ومن أجل هذا كله جاءت القصيدة آية ناطقة بالوفاء وعمق الإحساس وصدق التصوير .

وفيها يرينا حافظ عِظَم الخطب ، وكيف ينصبّ فى النفوس انصباباً ، ويناشد الليل أن يجلّل الوجود بظلامه :

إيه يا ليـــل هل شهدتَ المصابا ... كيف ينصبّ فى النفوس انصبابا
قُدّ يا ليـــل من ســـوادك ثوباً ... للدرارى وللضحى جلبـــابا
انسج الحـــالكات منـــك نقاباً ... واحْبُ شمس النهار ذاك النقابا[1]

ويدعو جنود سعد أن ينادوه فإذا لم يُجب فليُشقّوا عليه الثياب ، لأن فقده كان طامّة كبرى أصابت البلاد :

أى جنودَ الرئيس نادُوا جهـــاراً ... فإذا لم يُجب فشقوا الثيـــابـــا
إنهـــا النكبة التى كنتُ أخشى ... إنهـــا الساعة التى كنت آبى
إنهـــا اللفظة التى تنسف الأنـ ... ـفس نسفاً وتَفقرُ الأصـــلابـــا
مات (سعد) ، لا كنتِ يا (مات سعد) ... أسهامـــاً مسمومـــة أم حـــرابـــا
كيف أقصدْتِ كل حىّ على الأر ... ض وأحدثتِ فى الوجـــود انقلابا

ويخبر أهل فلسطين الذين دهاهم الزلزال فدكّ ديارهم دكًّا أن زلزال مصر أدهى وأعنف لأنه نكبها فى زعيمها الأوحد :

قل لمن بات فى (فلسطين) يبكى ... إن زلزالنـــا أجـــلّ مصـــابـــا
قد دُهيتم فى دياركم ودُهينـــا ... فى نفـــوس أبـــيْنَ إلا احتسابا
ففقـــدتم على الحـــوادث جفْناً ... وفقـــدنا المهنـــد القرْضـــابـــا
قـــدّر شـــاء أن يزلزل مصراً ... فتغـــالى فـــزلزل الألبـــابـــا
طاح بالرأس من رجـــالات مصر ... وتخطى التُّحـــوت والأوشابا

ويبين الشاعر كيف شيّعت الأمة زعيمها بين زفرات الحزن والأسى كما صنع فى رثاء الإمام والزعيم مصطفى كامل :

خرجت أمـــة تشيّع نعشاً ... قد حـــوى أمة وبحراً عبـــابا
حمـــلوه على المـــدافع لما ... أعجـــز الهام حَمله والرقابا
حال لونُ الأصيل والدمع يجرى ... شفقاً سائلا وصُبحاً مُـــذابا

(١) الديوان ٢/٢١٨ .

وسها النيلُ عن سُراه ذُهولا حين ألقى الجموع تبكي انتحابا
ظنّ يا سعد أن يَرى مهرجاناً فرأى مأتماً وحشداً عُجابا

ويأخذ فى تعديد مواقف الفقيد وسجاياه كعادته فى رثاء عظماء الأمة :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ مال أين اعتزمتَ عنا الذهابا
كيف ننسى مواقفاً لك فينا كنتَ فيها المهيب لا الهيابا
كنت فى ميعة الشباب حساماً زاد صقلا فرندُه حين شابا
عِظَمٌ لو حواه (كسرى أنو شر وان) يوما لضاق عنه إهابا
ومضاءٌ يُريك حد قضاء الله يَفْرى متنا ويَحْطِم نابا

ويشير حافظ إلى صلابة قناة سعد التى لم تلن تحت وطأة النفى والتشريد والاضطهاد ، وإلى ذكائه ودهائه ويقظته :

لم يَنْهِنْه من عزمك السجنُ والنفىُ وساجلتَها بمصر الضرابا
سائلوا (سيسلا) أأوجس خوفاً وسلوا (طارقا) أرام انسحابا ؟
عَزْمةٌ لا يصدّها عن مداها ما يصدّ السيول تغشى الهضابا
كلما أحكموا بأرضك فخّاً من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
تقتل الدس بالصراحة قتلا وتُسقّى مُنافق القوم صابا
وترى الصدقَ والصراحة ديناً لا يراه المخالفون صوابا
قد بلوناك قاضيا ووزيراً ورئيساً ومِدْرهاً خلّابا
فوجدناك من جميع نواحيـ ك عظيما موفقاً غلّابا
لم ينلْ حاسدوك منك مُناهم لا ولم يلصقوا بعلياك عابا

وحين نقرأ مرثيته لقاسم أمين نجده إنساناً محزوناً صادق الحزن ، ولكننا لا نحس فيها بالجو الشعبي الذى نحسه فى مراثيه لزعماء الأمة . وذلك لأن قاسماً لم يكن فقده خسارة شعبية مثل الأستاذ الإمام والزعيمين مصطفى كامل وسعد زغلول ، وفيها يقول مشيراً إلى جهاده فى سبيل تحرير المرأة من غير أن يبدى فيه رأيا خاصًّا :

إن ريْتَ رأياً فى الحجاب ولم تُعصَم ، فتلك مراتب الرسل

الحـكم للأيـام مرجعـه فيما رأيتَ فنم ولا تسـل
وكـذا طهـاة الرأى تـتركه للـدهر يُنضجـه على مهـل
فإذا أصبتَ فأنت خـير فـتىً وضـع الدواءَ مواضـع العلل
أولا ، فحسبك مـا شرفْتَ بـه وتركتَ فى دنيـاك من عمـل

ولا نلحظ فى القصيدة فاجعة شعبية عامة تأسى لها نفوس المصريين جميعاً ، لأن حافظاً لم يجد فى فقد قاسم خسارة عامة ولذلك نراه لا يخرج فى رثائه هذا عن تعديد شمائل الفقيد وإقفار الديار منه :

واهاً على دار مررتُ بهـا قفراً وكانت ملتقى السبل
أرخصْتُ فيهـا كل غالية وذكرتُ فيهـا وقفة الطلل
ساءلتُها عن (قاسم) فأبتْ ردَّ الجـواب فرحتُ فى خبل

ويخرج من ذلك إلى مخاطبة قاسم قائلا :

قل للإمام إذا التقيتَ بـه فى الجنتين بأكرم النُّـزُل
إن الحقيقة أصبحت هدفاً للراكبين مراكب الزلل
لله آثـارٌ لكم خـلدَتْ صاح الزوال بها فلم تَزُل
لله أيـامٌ لكم درجتْ طالت عوارفها ولم تطُـل
نعم الظـلال لو انهـا بقيتْ أو أن ظلاً غـيرُ منتقل

ولم يترك حافظ صديقاً أو زعيماً يمضى إلا وفّاه حقه من الرثاء ، يسوقه إلى ذلك وفاء نادر وكد يطوّق النفس من جميع جوانبها . وكان وفاؤه يدفعه إلى أن يمتدح المرثى ، غير مبال برأى الناس فيه . فقد رثى الدكتور (شبلى شميل) وسرد شمائله الكريمة برغم أن كثيرا من الناس قد أنكروا منه ذلك، لأنهم كانوا يغتمزون فيه التواء العقيدة ورقة الدين ، ويشير حافظ إلى ذلك فيقول :

إيه شبلى قد أكثر الناس فيـك الـ ـقـول حتى تفننـوا فى عتـابى
قيل : ترثى ذاك الـذى ينكر النـو ر ولا يهتدى بهدى الكتـاب
قلت : كفّـوا فإنما قمتُ أرثى منه خلاً أمسى طويل الغيـاب
أنا والله لا أحابيـه فى القـو ل فقد كان صاحبى لا يحـابى

أنا أرثى شمائلا منـــه عـــندى كن أحلى من الشّهاد المـــذاب[١]

وحافظ فى كل موقف من مواقفه الرثائية يذيب نفسه — كما رأيت — حسرة على المصاب ويندب حظه فى ألآفه وحظ الأمة فى رجالاتها وحظ الشرق فى زعمائه وحظ الدين فى حماته . وكثيراً ما يجعل مرثيته سجلاً لما كان بينه وبين المرثى من ألفة ومودة وما كان بينهما من مجالس أنس وسرور « يشتاقها هرون أو جعفر » ، وما كان يدور فى المجالس من طرف وفكاهات « عن غيرهم فى الحسن لا تصدر » :

فكم لنا من مجلس طيب يشتاقه هارون أو جعفر
نلعب باللفظ كما نشتهى ونُضمر المعـنى فما يَظهر
ونرســل النكتــة محبــوكة عن غيرنا فى الحسن لا تصدر
ثم انطوى هذا وهــذا وما يُطوى من الأيام لا يُنشر[٢]

ولست أشك فى أن حافظاً كان صادق الحزن فى رثائه للأشخاص الذين عرفهم ولمس مآثرهم وجمعته بهم أواصر من المحبة الخالصة والصداقة والألفة . ولكن هذا الحزن يتفاوت قوة وضعفا بحسب منزلة المرثى من نفسه أو من نفوس مواطنيه .

ولست أوافق الدكتور طه حسين فى « أن شعره فى رثاء الأباظيين متكلف لا يدل على حزن صادق ولا على لوعة ، وإنما دُفع إليه بواجب المجاملة »[٣] . فإنك لو قرأت رثاءه فيهم لأحسستَ أنه صادر من قلب محزون ينبض بالوفاء . وذلك لأنه قد نشأ بين الشاعر وبين أسرة الأباظيين جميعا صداقة قوية كانت تزداد مع الأيام رسوخاً « حتى امتنعت الكلفة وأصبح يحسب نفسه واحداً منهم ولا يحس فى بيوتهم بوحشة الاغتراب» كما يقول المرحوم الأستاذ دسوقى أباظة[٤] .

---

(١) الديوان ٢/١٨١ .
(٢) الديوان ٢/٢١٦ .
(٣) حافظ وشوقى ص ١٦٧ .
(٤) مجلة أبولو ص ١٣٤١ (يوليه سنة ١٩٣٣) .

ولهذا لم يكد يقضى واحدٌ منهم حتى يدفع الوفاءُ حافظاً إلى رثائه فى صدق وإخلاص . واقرأ له مثلا قوله من قصيدة يرثى بها عميد الأسرة المرحوم سليمان أباظة تجد فيها شيئاً من المبالغة التى لم تخلُ منها مرثية فى الشعر العربى :

أنّى حللتُ أرى عليك مآتما ... فلمن أوجّــه فيك حسن عــزائى ؟
لبنيك ، أم لذويك ، أم للكون ، أم ... للدهر ، أم لجماعة الجــوزاء ؟
لا تحمــلوه على الرقاب فقد كفى ... ما حُمِّلتْ من منّــة وعطــاء
وذروا على نهــر المدامــع نعشه ... يسرى بــه للروضــة الفيحاء[1]

ومثل ذلك قوله أيضا فى رثائه :

رحم الله منــه لفظــاً شهيــاً ... كان أحلى من ردّ كيد الأعادى
رحم الله منــه شهماً وفيــاً ... كان ملء العيون فى كل نادى
بتّ فى حُــلّة النعيم وبتنا ... فى ثياب من الأسى والسهاد
وسكنتَ القصور فى بيت خلد ... وسكنا عليك بيتَ الحداد[2]

ونحن لا ننكر أن هذا الشعر وأمثاله لم يكتمل له نضجه الفنى ، لأنه قاله فى فجر شبابه . والذى يهمنا منه أنه تعبير صادق عما كان يحسّ به حافظ من حرقة الحزن لفقد أحبابه من الأباظيين .

ويشبه الدكتور طه مراثيه للأباظيين بمرثيته للملكة « فكتوريا » ، ولكنى لا أرى هذا الرأى ، لأن حافظاً كان وفياً لأصدقائه الذين اتصل بهم من الزعماء وغيرهم . ولم تكن الملكة فكتوريا صديقة له . وأخْلِقْ بهذا الشعر الذى قاله فيها أن يكون شعراً سياسياً . ولعل حافظاً كان يبغى من وراء ذلك أمراً ما ، كما سمعتُ من بعض مَن كانوا على صلة به .

والقارئ لمراثى حافظ يلمح فيها ظاهرة واضحة ؛ وهى أنه كان يصوغها فى الغالب من الأبحر الطويلة ذات التفاعيل المديدة لتوائم مواقف الحزن وتناسب وقار الرثاء . وقد ساعده على التزام ذلك أنه كان يلقى قصائده بنفسه ، فكان

---

(١) الديوان ص ٢/١٣٥ .
(٢) الديوان ٢/١٣٧ .

يحس بجمال هذه البحور الطويلة فى مثل ذلك المقام ، ويدرك مناسبة موسيقاها ورحابة مقاطعها .

وبعد ، فهذا هو رثاء حافظ ، ولعله بلغ فيه من نفوسنا ما يريد ، ولعل أحداً من الشعراء الذين رثوه لم يبلغوا فى رثائه ما بلغه فى رثاء أئمة مصر وزعمائها ورجالاتها .

ولم يستطع شوقى أن يبلغ فى رثائه ما بلغه حافظ ، لأنه كان على نقيضه فى طباعه وفى حياته . فقد كان ذا شخصية غامضة يعجز المرء عن الوصول إلى قرارها . ولم يصادف فى حياته شيئاً من شظف العيش والإقتار . وقد ارتبطت حياته بالقصر ، فاضطر إلى أن يرسُم لنفسه طريقاً خاصًّا لا يجرّ عليه سخط صاحبه . ولهذا قلما كان فى رثائه مكان للبكاء أو استثارة للحزن . فهو لا يذوب أسى وحسرة على الراحلين ، ولا يتحدث عن نفسه فى معرض الحزن والبُرَحاء كما كان يفعل حافظ . ولكنه كان يجعل من المرثى وسيلة للتحدث فى الحياة وفلسفتها وتفاهتها ونهاية الدنيا ، ويتخذ من ملابسات المرثى وظروفه ميداناً للإفاضة فى الأحداث الإنسانية العامة واستخلاص العبر منها . وقلما نحس فى مراثيه باللوعة إلا فى أحوال قليلة كرثائه لأمه ولمصطفى كامل وعمر لطفى وأمين الرافعى ، لأن هؤلاء كانت تربطه بهم وشائج من القرابة أو التعلق الشديد أو التجاوب الفكرى .

وهذا يفسر لنا ما كان يصطنعه شوقى فى مراثيه من الحكم العامة البالغة التى يستخلصها من عبرة الفناء والموت والحياة، لكى يستعيض بها عما كان يشعر به من فتور العاطفة وضعف الإحساس . ولكن عبقرية شوقى كانت تضفى على مراثيه كثيراً من الجلال يعوضها ما تفقده من صدق الشعور .

وكثير من مراثى شوقى صيغت فى أبحر قصيرة لا تليق بوقار الحزن ومواقف الرثاء ، وإنما هى أليق ما تكون بمواقف الرقص والمرح ، وذلك لأنه كان فى قفصه الذهبى ، يحيا حياة ناعمة بعيدة عن أجواء الحزن والألم .

٥

معارض التاريخ

كانت ثقافة حافظ التاريخية غير فسيحة ، ولذلك نراه لا يُعنى كثيراً بالتاريخ وحوادثه والتعليق عليها . وكل ما كان يصنعه أنه كان يشير إلى بعض الأحداث والأعلام إشارة عابرة .

وكان حافظ بطبيعته قلما يميل إلى الالتفات إلى الماضى ، وإذا التفت إليه لا يعدو الماضى القريب . فهو يسبح فى التاريخ ولكنه لا يحلّق ، وذلك لأنه كان يتناول مادة شعره مما يجرى حوله أو يقع تحت حسه .

وإذا قلبنا النظر فى شعر حافظ نلتمس فيه أثر التاريخ المصرى القديم لا نجد له إلا قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » التى أنشدها فى الحفل الذى أقيم بفندق (الكونتنتال) لتكريم المرحوم عدلى يكن بعد عودته من أوربا قاطعاً المفاوضة مع الإنجليز ومستقيلا من الوزارة فى ديسمبر سنة ١٩٢١ .

وهذه القصيدة من روائع شعر حافظ ، وقد غنت السيدة أم كلثوم أبياتاً منها، وهو يستهلها استهلالاً رائعاً فيقول :

وقف الخلق ينظـــرون جميعاً ... كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبُنـــاة الأهرام فى سالف الده ... ر كفَوْنى الكلام عند التحدى
أنا تاج العـــلاء فى مفرق الشـ ... ـرق ودُرّاته فرائـــدُ عقـــدى
أى شىء فى الغـــرب قد بهر النا ... س جمالا ولم يكن منه عندى
فترابى تـــبرٌ ونهـــرى فـــراتٌ ... وسمائى مصقـــولة كالفـــرند[1]

ويمضى حافظ على هذا المنوال من الفخر ، حتى إذا حلّق فى الأفق

---

(١) الديوان ٢/٨٩ .

التاريخى كان تحليقه خاطفاً عجلا يدل على روح خطيب لا على روح شاعر ينفذ إلى أغوار المعانى . . يقول :

قل لمن أنكروا مفاخر قومى مثل ما أنكروا مآثر وُلدى
هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ ـبر يوما فريتُم بعض جهدى؟
هل رأيتم تلك النقوش اللواتى أعجزتْ طوق صنعة المتحدّى ؟
حال لونُ النهار من قدم العهـ ـد وما مسّ لونها طولُ عهد
هل فهمتم أسرارَ ما كان عندى من علوم مخبوءة طىّ بَرْدى ؟
ذاك فنّ التحنيط قد غلب الدهـ ـرَ وأبلى البلى وأعجز ندّى
قد عقدتُ العهود من عهد فرعوْ ن ففى (مصر) كان أول عقد
إن مجدى فى الأوليات عريق مَنْ له مثل أولياتى ومجدى ؟
أنا أُمّ التشريع قد أخذ الروْ مانُ عنى الأصول فى كل حدّ
ورصدْتُ النجوم منذ أضاءت فى سماء الدجى فأحكمتُ رصْدى
وشدا (بنتئور) فوق ربوعى قبل عهد اليونان أو عهد نجد
وقديماً بنى الأساطيلَ قومى ففرقْنَ البحارَ يحملنَ بندى
قبل أسطول (نلسنَ) كان أسطو لى سريًّا وطالعى غيرَ نكد

ثم نرى حافظا ينفتل من معارض التاريخ لأنه لا يستطيع أن يقف فيها وقفة المتأمل المتفحص ، وينحو نحواً آخر ، هو تبصيرُ مواطنيه بمناهل القوة والعلا ليردوها فيقول :

قد وعدْتُ العلا بكل أبىّ من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
أمهروها بالروح فهى عروس تَشْنأ المهر من عُروض ونقد
ورِدُوا بى مناهل العزّ حتى يخطبَ النجمُ فى المجرة وُدّى
وارفعوا دولتى على العلم والأخـ ـلاق فالعلم وحده ليس يُجدى
وتواصوْا بالصبر فالصبر إن فا رق قوماً فما له من مسدّ

والقصيدة كلها جزلة رائعة الديباجة محكمة النسج كما ترى . وقد وفّر لها حافظ كل العناصر التى تجعلها أخاذة صالحة للإلقاء فى المحافل . فهى خطبة

منظومة تستهوى الجماهير وتخلب أسماعهم لما فيها من سطوة فى القول وعذوبة فى الموسيقى وبراعة فى الأداء . ولكن الشاعر لم يوفق فى أن يرسم لنا فى الأبيات التى يشير فيها إلى قوة مصر العسكرية زمن الفراعنة — صوراً رائعة يستمد ألوانها وخيالها من الصور التى اختزنتها ذاكرته من حياته فى الجيش .

وهذا هو جهد حافظ الوحيد فى ميدان التاريخ الفرعونى . أما جهده فى ميدان التاريخ الإسلامى فلا نعرف له إلا مطولته المشهورة المعروفة (بالعمرية) [1] . وقد أقيم حفل خاص لإلقائها فى ٨ فبراير سنة ١٩١٨ فى مدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز . وهى سردٌ مسهب لتاريخ الخليفة عمر بن الخطاب وأعماله ومواقفه ، وتبلغ عدتها ستة وثمانين ومائة بيت . وقد قسمها حافظ إلى أجزاء وضع لكل منها عنواناً ، مثل مقتل عمر ، وإسلام عمر ، وعمر وبيعة أبى بكر ، وعمر وعلى . . . إلخ . وقد استهلها حافظ بالضراعة إلى الله أن يمنحه بيانا يستعين به على قضاء حقوق هذا الخليفة الفذ الذى يعتز به التاريخ الإسلامى أيما اعتزاز :

حَسْبُ القوافى وحسبى حين أُلقيها ... أنى إلى ساحة الفاروق أُهديها
لا هُمَّ ، هَبْ لى بياناً أستعين به ... على قضاء حقوق نام قاضيها
قد نازعتنى نفسى أن أوفّيها ... وليس فى طوق مثلى أن يوفّيها
فرْ سرىَّ المعانى أن يواتينى ... فيها فإنى ضعيف الحال واهيها

وليس هناك من سبب ظاهر لنظم هذه المطولة ؛ فقد يكون الدافع إليه إعجاب حافظ الشديد بالخليفة العظيم مفخرة الإسلام والمسلمين . وقد تكون القصيدة نفحةً روحية أضفتها عليه صحبته لزعيم الشرق والإسلام الإمام محمد عبده . ويجوز أن يكون حافظ قد أراد أن يضع أمام نابتة الشباب صورة واضحة لهذه الشخصية الإسلامية الجليلة من صميم تاريخهم ، لتكون مثلا لهم يحتذونه ويقتدون به ، وبخاصة بعد ما رآه من التياث حال العالم الإسلامى إبان الحرب العالمية الأولى وفساد أمر الخلافة .

---

(١) الديوان ١/٧٧ .

وهو يشير إلى ذلك فى ختام القصيدة فيقول :

هـذى مناقبه فى عهـد دولته ... للشاهدين وللأعقـاب أحكيهـا
فى كل واحـدة منهن نابـلة ... من الطبـائع تغذُو نفسَ واعيها
لعل فى أمـة الإسـلام نابتةً ... تجـلو لحاضرها مرآة ماضيهـا
حتى ترى بعضَ ما شادت أوائلها ... من الصروح وما عاناه بانيهـا
وحَسْبها أن ترى ما كان من (عمر) ... حتى ينبِّه منها عينَ غافيهـا

وما من شك فى أن حافظاً كان ينظر إلى شوقى فيراه يصول ويجول فى ميدان التاريخ الفسيح فيبدع ويجيد ، فأراد أن يجرى فى غباره ، وبخاصة بعد أن نظم شوقى مطولته المشهورة « نهج البردة » ، فنظم « عمريته » ليبين أنه ليس أقل استظهاراً لأمور التاريخ من زميله .

والقصيدة فى مجموعها طيبة الأسلوب دقيقة النظم رصينة العبارة كسابقتها . وهى — فيما أرى — اللفتة الوحيدة التى أرسلها حافظ إلى الماضى البعيد . وقد وُفق فى تجلية شخصية عمر إلى حد كبير .

ويتضح من ذلك أن حافظاً قد تخلف عن شوقى فى ميدان التاريخ تخلفاً كبيراً جداً . فشوقى هو الشاعر العربى الأعظم الذى استعرض التاريخ ، وبخاصة التاريخ المصرى والتاريخ الإسلامى ، فاستجلاه واستخلص منه العبر ، واتخذه وسيلة لاستنهاض الهمم ، وجعله مادة دسمة لشعره ، وهو ينوّه بقيمة التاريخ فيقول :

غالِ بالتاريخ واجعـل صحفه ... من كتاب الله فى الإجلال قابا
قلِّبِ الإنجيل وانظر فى الهدى ... تلق فى التاريخ وزناً وحسابا
واطلب الخلـدَ ورُمه منزلا ... تجد الخلد من التاريخ بابا
عاش خلقٌ ومضوا ما نقصوا ... رقعة الأرض ولا زادوا التّرابا
أخذ التـاريخ مما تركـوا ... عملا أحسن أو قولا أصابا[1]

وشوقى يعتبر التاريخ أحد مصدرَىْ الشعر فيقول : « والشعر ابن أبوين :

---

(١) الشوقيات : ٢/٥٣ .

التاريخ والطبيعة »[١]. وقد تناول تاريخ الدول وسير عظماء التاريخ فى الشرق والغرب ، وتناول الآثار وأخذ يناجيها ويحاورها .

وكان شوقى يتخذ شخصياته التاريخية من العصاميين لتكون الصورة أروع والعبرة أبلغ ، ومن غير العصاميين لمكانتهم الأثيرة فى التاريخ .

ولست بصدد الحديث عن شوقى ، وحسبى أن أحيلك على ديوانه لتدرك أنه زاخر بألوان شتى من التاريخ . وذلك لأن شوقى كان مؤرخا بطبيعته كما كان شاعرا بسليقته . وله من ألوان التاريخ ما يغوص فى بطون الماضى السحيق ، ومنها ما يتناول حوادث العصر الحديث . ولعل أبرز تاريخياته مطولته المشهورة التى نظمها فى شبابه وافتتح بها الجزء الأول من ديوانه بعنوان « كبار الحوادث فى وادى النيل » ، وقد قالها فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى « جنيف » سنة ١٨٩٤ ، وكان مندوب مصر فيه . وهى قصيدة تدل على سعة الطاقة الفنية وطول النفس إذ تبلغ تسعين ومائتى بيت التزم فيها قافية واحداً وروياً واحدا ، ومطلعها :

همّت الفلك واحتـــواها الماء وحداها بمن تُقِلّ الرجاء[٢]

وقد عرض فيها شوقى لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى تاريخ نظمها . وقد جمعت هذه القصيدة إلى براعة الفن جمال العرض ولباقة الأداء ، يتخلل ذلك الحكمة البالغة المستوحاة من أعماق التاريخ . وهو يعرض أمام ناظريك مواكب التاريخ منتظمة آخذاً بعضها برقاب البعض فى نظام فنى ساحر . وقد وصف المرحوم الدكتور « محمد حسين هيكل » هذه القصيدة وصفاً رائعاً فقال : «رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد على ، وقف فيها الشاعر وقفة مصرى صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ . . . وأنت تراه فى عرضه هذا التاريخ ممتلىء النفس فخرا بمجد مصر حين يرتفع بها المجد إلى عليا ذراه ، آسفاً حزيناً حين تمر بمصر فترات ظلم وذلة ، مستفزاً للهمم ، حافزاً لعزائم أهل جيله والأجيال التى بعده كى

---

(١) من كلمة قدم بها قصيدة « روما » الشوقيات : ١/٣٠٦ .

(٢) الشوقيات : ١/١ .

يعيدوا مجد الماضى وعظمته . . . »[١]

أما الجانب الإسلامى فقد كانَ له من قريض شوقى أكبر نصيب . ولعل ألمع إسلامياته قصيدتا « نهج البردة » و « الهمزية » . وفى خلال إقامته بأسبانيا إبان الحرب العالمية الأولى استفزه مجد الإسلام الدائر إلى أن ينظم سلسلة من القصائد فى التاريخ الإسلامى، وقد طُبعت بعد وفاته فى كتاب عُرف باسم « دول العرب وعظماء الإسلام » . وقد قدّمها اللغوى العالم المرحوم محمود خاطر بقوله : « هذه درة فى تاج الأدب وغرة فى جبين القريض ، نظم أمير الشعراء عقدها وصاغ معناها ولفظها ، وهو يعانى ألم النفى ويتجرع غصص النوى إبان الحرب العالمية الكبرى بين ربوع الأندلس التى عُمّر الإسلام فيها ثم درس . . . » .

وقد استهل شوقى هذه المجموعة بالكلام على لغة العرب ، وختمها بالكلام على دولة الفاطميين . وقد نظمها من بحر الرجز على غرار المنظومات العلمية كما صنع ابن المعتز فى تاريخ الخليفة المعتضد ، وأبان اللاحق فى بعض أبواب من الفقه ، فهو يقول مثلا :

الخلفاء الراشدون أربعة — مرضية سنتهم متُبعه
العُمَران وابن أروى وعلى — فى الذروة الشماء والأوج العلى

بيد أنه أبدع أيما إبداع فى منظومته « صقر قريش » وهى موشحة رائعة نظمها على غرار موشحة ابن سهيل الأندلسى شاعر إشبيلية المعروف . ولعل الجو الذى كان يعيش فيه وهو الأندلس قد ذكّره بهذه العهود الغابرة التى أسس فيها عبد الرحمن الداخل دولة زاهرة فى الأندلس ، فجاءت الموشحة من قرارة نفسه آية فى الروعة والجمال . وقد صوّر فيها شوقى قصة هذا المغامر العربى الجرىء تصويراً بديعاً حقاً ، وهى قريبة الشبه بأندلسيته المشهورة :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا — نأسى لواديك أم تأسى لوادينا

مهما يكن من شىء فإن مجال القول لا يتسع للحديث بإسهاب عن شوقى الشاعر الفنان المؤرخ ، ولكنى أحب أن أقرر أن حافظاً لم يستطع أن ينهض ليحاذى شوقى فى معارض التاريخ ، بل كان فى السفح وزميله فى القمة .

---

(١) انظر مقدمة الدكتور هيكل للجزء الأول من الشوقيات .

٦

الوطنيات

كان الشرق العربى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يتوثّب للنهوض والتحرر من أغلال الاستعمار بعد أن مضت عليه فترة غشيته فيها سُحبٌ من الاستكانة والخمول والتواكل، حتى لقد قال أحد زعماء الشرق : « لقد نزلتْ هذه الأمة منزلة من الخمول هبطت بها إلى مصاف العجماوات حتى خشيتُ أن يخطئها البعث فى يوم البعث[1] » .

وكان لا بد للشعراء أن يحملوا العبء الأكبر فى استنهاض الهمم وإيقاظ الشعوب العربية من غفوتهم التى طال ليلها ، لأن الصحافة فى ذلك الوقت كانت لا تزال غضة العود لا تقوى على النهوض بهذه الرسالة . لذلك قامت فى كل وطن عربى صيحات مدوية تتفاوت قوة وضعفاً ، تفيض بها قرائح الشعراء ، مترجمين عن آلام أممهم وآمالهم ، وباعثين الهمة القعساء والعزم الحديد فى نفوسهم .

وبهذه الروح وجد الشعر العربى باباً جديداً واسعاً يطرقه الشعراء ، فيضيفون إلى أبوابه لوناً جديداً لا عهد للعربية به من قبل وهو الشعر الوطنى .

ولقد تلفتت مصر إلى شعرائها لتحمّلهم هذه الأمانة فلبّوا نداءها سراعاً . وكان فى الرعيل الأول شاعراها الكبيران أحمد شوقى وحافظ إبراهيم .

نعم ، لم يكد هذان الشاعران يبلغان الحُلُم حتى سمعا صوت « جمال الدين الأفغانى » يوقظ المسلمين من غفوتهم ويُهيب بهم أن يحطموا تلك الآصار التى ضُربت عليهم . ثم لم يلبثا أن استمعا إلى صيحة الجهاد والتحرير تستجيب لنداء جمال الدين على لسان الشاب مصطفى كامل حوالى سنة ١٨٩٠ ، وقد رددتها

---

(١) ليالى سطيح ص ١١٤ .

جنبات الوادى ، واستيقظ على صداها ذلك الجيل المستسلم . ثم أصاخ الشاعران إلى صيحات أخر تدوّى فى جنبات البلاد العربية والإسلامية داعية إلى التحرر من ضراوة الاستعمار الأجنبى ، ومن الجهل الجاثم فوق الصدور ، ومن الخوف الذى يثبّط العزائم ويقبض الهمم .

نشأ الشاعران إذن فى زمن كل ما فيه يدعو الفرد إلى أداء ضريبة الوطن الأولى وهى الجهاد . وكان من البديهى أن يُسهم الشاعران فى هذا الجهاد على طريقة تُسقط عنهما عب الجهاد العسير فى السياسة أو فى الجماعات السرية التى تسترخص النفوس فى سبيل استنقاذ الوطن المصرى خاصة والوطن العربى عامة من إسار الرق وأغلال الاستعباد . وكان طريقهما فى هذا الجهاد الشعرَ الذى يستنهض الهمم ويحث على الجهاد ، وهذا الشعر هو الذى يُعرف بالشعر الوطنى أو الشعر القومى .

وكانت هذه البلاد كلها فى ذلك الحين تغلى وتتحرك . وكانت مصر ملجأ كل مضطهد ومهاجَر كل مظلوم ، وكانت تئن تحت نير الغاصب الجبار وتحاول أن تستردّ حريتها المسلوبة .

وقد وجد الشاعران إذن الميدانَ فسيحاً لكى يؤديا لوطنهما ضريبة الجهاد على الطريقة التى قصداها .

والآن أحب أن أبين نصيب شاعرنا حافظ فى هذا الجهاد ، وهل أفلح فى تأدية ضريبته على أكمل وجه أم لا ، وقبل أن أشرع فى تبيان ذلك أود أن أوضح مفهوم الشعر الوطنى :

يعرّف أديب فاضل الشعر الوطنى تعريفاً صادقاً فيقول : « أصل الشعر الوطنى هو الحماسة ، أى أن تكون ثائر النفس ، جياش الفؤاد ، فتصبّ ثورة نفسك فى بيان يتدفق فى قلوب أبناء أمتك فيثيرهم ويثير أحلامهم ويجيّش هممهم ويوقظ نائم أحقادهم ويرفع لهم مُثل الحياة الحرة الشريفة العزيزة ويهزهم هزًّا إلى صراع عدوهم وإن خيف بطشه وجبروته ، ويحبب إليهم احتمال الأذى ولقاء

الردى ، والجود بالنفس والمال والولد ونعيم الحياة وراحة الحياة الدنيا » [١]

هذا هو التعريف الحق للشعر الوطنى . والواقع أن حافظا — فيما أعتقد — لم يكن له نصيب يذكر من هذا الشعر . وأظن أنه لم يكن فى طوقه أن يُسهم فى ميدان الجهاد بهذا اللون من الشعر الوطنى . فقد كان رجلا فاتر النفس ، خائر العزيمة ، مستغرقاً فى هم صغار لا تنزع به إلى ثورة ولا إلى تحريض على ثورة . وكان — حتى آخر أيامه — جد حريص على أن يكون مكفىّ الرزق بسبب ما لاقاه من بؤس وضيق فى بواكير عمره .

وكان مما قصر بحافظ عن أن يكون شاعراً وطنيًّا بالمعنى الصحيح أنه كان إنساناً مذعور القلب فى غير ذعر ، ضعيف القدرة على تحمل المشاق وتكاليف الجهاد ، كثير الشكوى والنقمة على الزمان ، شديد الجزع إذا أصابه ضرّ مهما كان هيناً . فقد نشأ فتى يتيمًا وعاش صدر حياته عالة على خاله كما ذكرنا ، فكان فى إنشاده يكتم أنفاسه حذراً ويجمجم شعوره تقية ، وبخاصة بعد أن عاد من السودان طريداً معاقباً . ولم تفارقه تلك الرهبة التى استولت على مشاعره ، فكان شعره يمثل نفساً مقهورة مذعورة مستكينة . وكان إذا جاش بنفسه شعر يخشى أن يؤخذ عليه خاف مغبة ذلك وطواه وأبى نشره . ويذكر لنا أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين أن حافظاً — رحمه الله — أنشده قبيل وفاته قصيدته التى مطلعها :

قد مر عام يا سعاد وعـــام وابن الكنانة فى حماه يُضام

وكانت نحو مائتى بيت يذكر فيها بشاعة حكم إسماعيل صدقى عام ١٩٣٢ فأشار عليه بأن ينشر بعضها أو يكتبها أو يمليها أو يحتفظ بها فقال : « إنى أخاف السجن ولست أحتمله » [٢] . وله من أمثال ذلك كثير .

وقد ظهر أن معظم هذا الشعر الذى كان يخشى مغبة إذاعته أهونُ من أن

---

(١) مجلة الكتاب ص ١٥٧٦ (عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧) .

(٢) مقدمة الديوان ص ١٩ .

يخافه إنسان من عامة الناس فضلا عن شاعر مذكور كان يعتبر نفسه فى عداد المجاهدين .

وكان ذعره وخور همته يدفعانه إلى أن يتلمس الطريق التى تقرّبه من المستعمرين الباطشين ، فكان يختار مناسبات يقول فيها شعراً تبرأ منه الوطنية ولا يدل إلا على أن قائله يطلب السلامة لنفسه من غير أن يكون هناك ما يهدد حياته أو ما يجب توقّيه . والعجيب فى ذلك أنه كان يعلم — كما كان يعلم غيره — عدم جدوى هذه الزلفى الرخيصة ، وأنه لن يجنى من ورائها قليلا أو كثيرا . ولست أدرى لم كان يكدّ ذهنه فى نظم هذا الشعر التافه .

تموت فكتوريا ملكة بريطانيا — وقد ذاقت بلاده شر أنواع البلاء إبان حكمها — فيرثيها ، مبيناً مناقبها (الغُرّ) ويعزى قومها الذين ساموا بلاده من الخسف والهوان ما شهده حافظ بعينىْ رأسه . ومن المؤلم أن هذا الشعر المسفّ قد نُشر فى يناير سنة ١٩٠١ ولم يقرأه إلا قومه المساكين المغلوبون على أمرهم[١] .

ويخلفها على عرش إنجلترا ابنها إدوارد السابع فينبرى شاعرنا يهنئ ملك المستعمرين الطغاة بقصيدة مطلعها :

لمحتُ من مصر ذاك التـــاج والقمرا فقلتُ للشعر هذا يوم من شعرا[٢]

وهى قصيدة مليئة بالكلام الغث المرذول ، فيه خنوع وتصاغر أمام المستعمر ، وفيه تثبيط لهمم الشباب وتحطيم لآمالهم فى الجهاد ، وفيه إلى جانب ذلك مدح للإنجليز وإشادة بعظمة دولتهم التى لا يجسر أحد على مناوأتها ، لأن الأقدار تجرى بما تشاء :

من ذا يناويك والأقدار جارية بما تشائين والدنيا لمن قهرا

وما أشقّ على نفس المصرى أن يقرأ شعر « شاعر النيل » فيجده انهياراً مخزياً أمام الإنجليز ؛ فإذا ابتسمتْ لنا إنجلترا سعدنا ودان لنا الدهر ، وإلا فالويل لنا إن كشرت عن أنيابها :

---

(١) اقرأ القصيدة فى الديوان ٢/١٣٦ .

(٢) الديوان ١/١٨ .

إذا ابتسمتْ لنا فالدهر مبتسم وإن كشرتْ لنا عن نابه كشرا

ثم يصف الإنجليز بالعدل الذى مكن لهم فى الأرض :

ماثَل ربك عرشاً بات يحرسه عدل، ولا مد فى سلطان من غدرا

فأى عدل رآه حافظ من الإنجليز ؟ لعله لم ير ما تعانيه الأمم الخاضعة لهم من ضروب الظلم والهوان . ولعله قد رأى فى هذا الظلم رعاية كريمة منهم للبشر حين يقول :

اليوم يلثم تاجُ العز محتشماً رأساً يدبر مُلكاً يكلأُ البشرا

وما أعجب أمر حافظ حين يقرن (عدل) إدوارد السابع عند الإنجليز بعدل الفاروق عمر عندنا :

هم يذكرونك إن عدّوا عدولهم ونحن نذكر إن عدّوا لنا عمرا

وقد نشر حافظ هذه القصيدة فى أغسطس سنة ١٩٠٢ ، أى فى وقت لم يكن يشغل فيه وظيفة ما ، يخشى أن يصاب فيها ؛ فقد ترك وظيفته العسكرية سنة ١٩٠٠ وعُين فى دار الكتب سنة ١٩١١ .

وتحدث حادثة دنشواى فى ١٣ يونية سنة ١٩٠٦ فيهتز لها ضمير العالم كله جزعاً ، وتغلى نفوس المصريين حقداً على الإنجليز ، ويدوّى صوتُ الزعيم الشاب مصطفى كامل فى الخافقين كالرعد القاصف منددّاً بوحشية الإنجليز ، فينبرى حافظ الشاعر (الوطنى) — وهو فى فورة العزم وحُمَيّا الشباب — أخذاً بنصيبه مع الخانقين ، وينظم قصيدة كلها لين وعتاب رقيق ، وتحس فيها بأن الشاعر يقف من القساة المحتلين موقف الذلة والاستجداء ، مذكراً إياهم (بولاء المصريين) لهم :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا[1]

ويرجوهم أن يحسنوا القتل إذا ضنوا بالعفو :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتمُ أم كيادا ؟

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتمُ أم جمادا ؟

---

(١) الديوان ٢/٢٠ .

وقد بلغ من تطامنه أن وجّه اللوم إلى مواطنيه الذين اتُّهموا ظلماً فى هذه الحادثة وقُتل منهم من قتل وعُذّب منهم من عُذب من غير ذنب أو جريرة مع أن الحق كان ينطق ببراءتهم :

جاء جُهّالنا بأمر وجئتم ... ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
كيف يحلو من القوىّ التشفى ... من ضعيف ألقى إليه القيادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم ... إنما يُكرم الجواد الجوادا
أمة النيل أكبرتْ أن تعادى ... من رماها وأشفقتْ أن تعادَى

فمن هم (جهالنا) الذين يشير إليهم حافظ ؟ إنهم مواطنوه البرآء من تهم الإنجليز ومن تهم حافظ نفسه . وماذا يعنى حافظ بقوله : « من ضعيف ألقى إليه القيادا » ؟ فهل ارتضينا أن نسلم قيادنا إلى المستعمرين ؟ إن حافظاً يعلم أننا غُلبنا على أمرنا فسلبونا استقلالنا على الرغم منا وقبضوا على أزمّة أمورنا .

والقصيدة كلها من هذا الطراز الغث الذى لا يبعث فى النفوس ثورة ضد مظالم المستعمرين .

ومن الذى يقول هذا الشعر ؟ إنه ضابط بالجيش ، كان أولى به أن تمتلىء نفسه بفورة التضحية والفداء . إنه علَم من أعلام الشعراء الذين يُنتظر منهم التوجيه السليم والقدوة الحسنة . إنه حافظ إبراهيم الذى لم يكن صاحب ذرية ضعاف يخشى عليهم البؤس والتشريد . ومن غريب الأمر أن أستاذه البارودى يقرّظ الجزء الأول من ديوان تلميذه فيصفه بالشجاعة والإقدام قائلا :

لا زال يبلغ شأو كل فضيلة ... بمضاء صمصام وصولة بازى

يلوم اللائمون شوقى لأنه لم يعرض لهذه الحادثة إلا بعد مرور سنة . وهو — فى نظرى — قد سلك مسلكاً أكرم من مسلك حافظ ، لأنه لاذ بالصمت حتى تحين فرصة للقول ، وقد صدق النبى الكريم حين قال : «رحم الله امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم » .

كان هذا شأن حافظ مع الإنجليز ؛ العتاب الرقيق الذى يوجهه صديق لصديق لم يأت فى حق الصداقة أمراً إدّاً . فى حين أنه قسا قسوة مريرة على

(المدعى العمومى) المصرى وتهكم عليه تهكماً لاذعاً :

أيهـــا المدعى العمـــومى مهلا بعضَ هذا فقد بلغْتَ المرادا
قد ضمنّا لك القضاء بمصر وضمنّا لنجلك الإسعادا
إيه يا مدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسْنا على يديك الحدادا

وكان المستعمرون الطغاة أولى بهذه السهام لأنهم أسّ البلاء ، فهمَ الذين أفسدوا الضمائر والنفوس وبثوا فيها روح الملق والإسفاف .

وأدهى من ذلك أن شاعر النيل ينظم قصيدة يستقبل بها (كرومر) عاهل الاحتلال عند عودته من مصيفه بعد حادثة (دنشواى) . ويستفتحها بتحية اللورد ، ويعاتبه عتاباً يسيل رقة :

قصرّ الدبارة هل أتاك حـــديثنا فالشرق ربع له وضجّ المغرب[1]
أهـــلا بساكنك الكريم ومرحبـــاً بعـــد التحيـــة إننى أتعتب

ومن المؤلم أن يذكر أن اللورد هو الذى علمنا الحياة فيقول :

علّمتَنا معنى الحيـــاة فـــا لنـــا لا نشرئبّ لهـــا ومالك تغضب

نعم ، لقد علمنا (كرومر) الحياة ، ولكنها حياة الخنوع والذلة والاستسلام ، هذه الحياة المتطامنة التى جُبلت عليها نفس حافظ . أنا على يقين من أن حافظاً كان يؤمن فى قرارة نفسه بأن الإنجليز قد (علمونا) الجهل والانقسام والتّهافت على الدنايا ، حتى ذهبت ريحنا وأصبح كبراؤنا وأولو الأمر فينا براذع لكرومر وأعوانه من ذوى الوجوه الحمر .

ويتوسل حافظ فى ذلة وانكسار إلى (اللورد) أن يرفق بنا وأن يذكر ولاءنا لهم ، فلعل هذا الولاء يشفع لنا عنده فى حسن المعاملة :

رفقـــاً عميـــد الدولتين بأمـــة ضاق الرجاء بهـــا وضاق المذهب
رفقـــاً عميـــد الدولتين بأمـــة ليست بغـــير ولائها تتعـــذب
كن كيف شئتَ ولا تكلْ أرواحنا للمستشار فإن عدلك أخصب

---

(١) الديوان ٢/٢٢ .

فاجعـــل شعارك رحمـــة ومودة إن القلوب مع المودة تُكسب

يا لها (من نصائح غالية) يزجيها هذا الشاعر الوطنى إلى عميد الاحتلال الطاغية (صاحب العدل الأخصب) الذى لم تسلم من بوائقه زاوية فى أرض مصر .

وليت حافظاً يكتفى بذلك ويمسك لسانه عن القول ، ولكنه يرمى أمته بكل نقيصة ، وكأنه لم ير هدفاً لهجائه إلا مواطنيه المساكين ، فيخاطب (اللورد) قائلا :

وإذا سُئلتَ عن الكنانة قل لهم هى أمـــة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتهـــا ونم عنهـــا تنم فالناس أمثال الحوادث قُلّب

ولست أشك فى أن حافظاً لم يغب عنه أن الإنجليز هم سبب هذا الانحلال وذلك اللهو ، فهم أحق بهجائه من شعب مصر البائس . ولكنه ترك هجاء الأعداء وأخذ يهجو أمته لتكون كلماته عوناً للمستعمر فى تثبيت أقدامه حين تنتشر وتجرى على ألسنة المنافقين وحشوة الأمم ممن نزلوا أرض مصر مع الاحتلال البريطانى . . . وحافظ هو صاحب البيت المشهور الذى يؤذى الآذان من قصيدة نظمها سنة ١٩٠٠ .

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلما[1]

وحافظ هو القائل فى سنة ١٩٠٤ يهجو أمته ويقرعها :

فما أنت يا مصر دار الأريب ولا أنت بالبـــلد الطيب
يقولون : فى النشء خـــير لنا وللنّشءُ شرٌّ من الأجنبى
(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيهـــا أبو الطيب
أمـــورٌ تمر وعيش يُمِرّ ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفرّ من الصالحـــات فـــرارَ السليم من الأجرب
وقالوا : دخيـــلٌ عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبى

(١) الديوان ٢/١١٤ .

ألفنا الخمـــول ويا ليتنـــا ألفنا الخمول ، ولم نكذب[١]

فما الذى يعنيه حافظ بمثل هذا الشعر ؟ إن كان يريد التقريع لاستنهاض الهمة واستثارة الحمية فما أبعده عن الصواب ! إن مثله كمثل المدرس الذى يظل يوبخ تلميذاً مهملا ، ويكثر من توبيخه بحق وبغير حق حتى يتبلد إحساسه ويصبح التوبيخ لا جدوى منه . أو كمثل خطيب المسجد فى القرى فى الزمن الغابر . . . كان جلّ همه أن يوجه إلى المصلين السباب المرّ حول عصيانهم لله وتنكّبهم جادّة الهدى من غير أن يبصّرهم بأمر دينهم بطريقة تؤثر فيهم ، فكان الكلام يصل إلى آذانهم دون قلوبهم ولا ينتصحون به أو يتأثرون .

لقد كان الأخلق بحافظ أن يشجع مواطنيه ويستحثهم على استنقاذ وطنهم من ربقة الاحتلال ، مذكراً إياهم بمجدهم الغابر وماضيهم السالف كما كان يصنع زميله شوقى . فالفرق بين الشاعرين أن شوقى يصور لنا من حياتنا ناحية الكبرياء الجريحة ، لأنه كان يشعر بالكرامة الوطنية ويحاول أن يشدّ العزائم ويحشد الهمم . أما حافظ فهو يصور لنا ناحية الثورة الهزيمة والنفوس الخائرة ، وصدق من قال : إن حافظاً نفسه كان أشد على مصر من هذا الشىء الذى ذمه ، وإنه ابن هذا الشعب الذى يفر من الصالحات »[٢] .

ولما أقضّت صيحات الزعيم مصطفى كامل مضجع الطاغية « كرومر » واضطر إلى الاستقالة سنة ١٩٠٧ بعد حادثة دنشواى ودّعه حافظ بقصيدة فيها إطراء لسياسته واعتراف (بفضله على المصريين) بدأها بقوله :

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميـــد وإنه حقيق بتشييع المحبـــين والعـــدا
فودّعْ لنا الطوْد الذى كان شامخاً وشيّعْ لنا البحر الذى كان مزبدا[٣]

ثم أخذ يعدّد (أيادى اللورد البيضاء) ، هذا الذى كان يرى فيه حافظ (ذلك المصلح المتوددا) ، فيخاطبه قائلا :

---

(١) الديوان ١/٢٥٦ .
(٢) مجلة الكتاب ص ١٥٧٢ (أكتوبر سنة ١٩٤٧) .
(٣) الديوان ٢/٢٦ .

سنطرى أياديك التى قد أفضتَها علينـــا فلسنا أمة تجحد اليـــدا
أمنّـــا فلم يسلك بنا الخوفُ مسلكاً ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقـــدا
وكنتَ رحيم القلب تحمى ضعيفنا وتدفع عنا حادثَ الدهر إن عـــدا

فأى شىء يريده الإنجليز أكثر من هذا الكلام فى تبرير الاحتلال وتثبيته ؟

والغريب أن حافظاً يتنصل من إبداء رأيه الصريح فى سياسة هذا الطاغية ، وهو الشاعر الذى كان خليقاً به أن يكون قدوة لمواطنيه فى تأجيج ضرام الثورة ضد المستعمرين وصب اللعنات عليهم . وكان يرى أن الشاعر لا يجوز له أن يدخل فى غمار السياسة ، وحسبه أن يسجل التاريخ ويخلد الأعمال :

ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم لسجلت لى رأياً وبلّغتُ مقصـــدا
ولكننى فى معرض القـــول شـــاعر أضاف إلى التـــاريخ مجداً مخلدا

وقد ختم القصيدة بتحية كريمة يزجيها إلى عاهل الاحتلال :

فيأيها الشيخ الجليـــل تحية ويأيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلة لقد لبثتْ آثاره فيك شُهَّدا

أما شوقى فقد ودع « كرومر » بقصيدة رائعة كلها سخط على الرجل وتنديدٌ بسياسته وشماتة به وتشهيرٌ بأعمال الإنجليز يقول فيها :

لما رحلتَ عن البـــلاد تنهدَتْ فكأنك الداءُ العياء وبيـــلا
أنذرْتنـــا رقًّا يـــدوم وذلـــة تبقى وحـــالا لا ترى تحـــويلا
أحسبتَ أن الله دونـــك قـــدرة لا يملك التغيـــير والتبـــديلا
قالوا : جلبتَ لنـــا الرفاهة والغنـــى جحـــدوا الإله وصنعه والنيـــلا
فارحـــل بإذن الله جل صنيعـــه مستعفياً إن شئت أو معـــزولا
إنا تمنّينـــا على الله المنـــى والله كان بنيلهن كفيـــلا[1]

ويخيل إلىّ وأنا أقرأ قصيدة حافظ أنه كان يقول وهو يتلفت وراءه خشية أن يعود (اللورد) ويبطش به .

---

(١) الشوقيات : ١/٢٠٩ .

ربما كان حافظ يعتقد أن الملاينة والإطراء يدعوان المحتلين إلى أن يردّوا إلينا بعض حقوقنا . ولكنه كان يعلم كما يعلم سائر المصريين أن الحقوق لا تُردّ إلى ذويها إلا بالجهاد ، سواء أكان هذا الجهاد بالسيف أم بالقلم . ولا شك أن حافظاً قد أدرك أن جهاد مصطفى كامل قد أثمر ثمرته المرجوة بعزل جبار الاحتلال عقب حادثة (دنشواى) المشئومة . ولو سلك معهم سبيل حافظ لما جنت البلاد إلا الفشل والخسار .

ويظن بعض الناس أن حافظاً كان يسلك هذا المسلك أملاً فى أن يحقق صالحاً خاصًّا له وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولعل أهون ما يقال فى هذا الاتجاه المريب أنه ينم عن ضعف فى المُنَّة وخور فى العزيمة .

وقد دافع بعض الأدباء عن موقف حافظ هذا بأنه « لم تتوافر له أسباب الحرية التامة ومقوماتها بالقدر الذى توافر لشوقى . فهو كان يعمل مضطرًّا فى أحيان كثيرة على أن تكون علاقته بذوى النفوذ والسلطان حسنة ما استطاع » [1] .

وهذا الكلام فيه طعن صريح فى وطنية حافظ ، لأنه كان يتخذ مدح الإنجليز الذين أذلوه واستذلوا مواطنيه سلماً للتقرب منهم طمعاً فى صالح ذاتى أو خشية أن يلحقه أذى .

ويستطرد هذا الكاتب فيقول : « وشاعرنا لم يكن على اتصال وثيق بالخديو الذى كان يناصبه (اللورد كرومر) العداء كما كانت الحال مع شوقى . ويأتى أخيراً ذلك الاعتبار الذى ذكره حافظ نفسه فى قصيدته من أنه فى ذلك الموقف ليس من أهل السياسة ولكنه مؤرخ للحقيقة المنصفة البعيدة عن الهوى والغرض » .

وفى هذا القول يشير الكاتب إلى سر الموقف النبيل الذى وقفه شوقى من وداع اللورد . على أن دفاعه عن حافظ قد زاد موقف الشاعر سوءاً . فمثله كمثل الدبة التى رأت ذبابة حطت على وجه صاحبها وهو نائم فقذفتها بحجر حطم رأسه وقضى عليه .

فهل يُساغ من حافظ أن يُعرض عن نقد طاغية الاستعمار (كرومر)

---

(١) انظر كتاب « حافظ إبراهيم الشاعر السياسى » للأستاذ روفائيل مسيحة ص ٧٧ .

لأنه أى (كرومر) يناصب الخديو العداء ؟ لقد كان الأجدر به أن يتخذ من هذه الحال القائمة بين اللورد والخديو ما يشد أزره لمهاجمة عدو الوطن .

ألا رحمك الله يا حافظ ، فهل ران على قلبك ركامٌ من النسيان فنسيت أو تناسيت ما ذاقه المصريون على يد هذا الطاغية الجبار ؟ وهل من التأريخ « للحقيقة المنصفة البعيدة على الهوى والغرض » أن تثنى على من أذاق مواطنيك ألواناً من الظلم والهوان ؟

والواقع أنك تتبين هذا الاتجاه المزرى من حافظ فى كثير من قصائده ؛ فقد استقبل « مكمهون » المعتمد البريطانى الجديد بقصيدة كلها إشادة بعدل الإنجليز ونبل أخلاقهم ، وفيها استجداء مُسفّ يكاد يجعل الأنف فى الرغام . ذلك أنه كان من خلق حافظ أن يميل مع من يواليه من العظماء فى أى اتجاه من غير أن يستبين وجه الحق والصواب . فلما أرسلت إنجلترا (السير مكمهون) أول مندوب سام يحكم مصر تحت ظل الحماية لما شب ضرام الحرب العالمية الأولى — استقبله وكيل الجمعية التشريعية فى محطة مصر يوم ٩ من يناير سنة ١٩١٥ مع لفيف من العظماء وكبار رجال الدولة . فلمارآه، يترجل من القطار قال على مسمع من الحاضرين: «إن دلائل الخير بادية على وجهه »[١] ، وكان حافظ محسوباً فى بطانة وكيل الجمعية هذا . فلم تكد تمضى أيام حتى نشر حافظ هذه القصيدة يخاطب بها المندوب الجديد ، وقد بدأها بقوله :

أى (مكمهون) قـدمتَ بالـ ـقصد الحميـد وبالرعـايه
مـاذا حملتَ لنـا عن المـ ـلك الكبيـر وعن (غرايه)
أوضِـحْ لمصر الفـرق ما بـين السـيادة والحمايه[٢]

واسمع قوله منها يخاطب الإنجليز :

أنـتم أطبـاء الشـعو ب وأنبـل الأقوام غايه
أنّى حللـتم فى البـلا د لكم من الإصـلاح آيه

---

(١) صحيفة المقطم ١٩١٥/١/١١ .
(٢) الديوان ٨٢/٢ .

رسختْ بنـاية مجـدكم فـوق الروية والهـدايه
وعـدلتمُ فلـكمُ الـ ـدنيا وفى العـدل الكفايه
إن تنصروا المستضعفـ ـين فنحن أضعفهم نكايه

فقل لى بالله عليك ؛ ماذا بقى لبريطانى من قول يقوله فى تسويغ الاحتلال وفى تأييد دعواهم العريضة (الإصلاحية) التى يدّعونها على كل شعب وقع تحت سنابك استعمارهم الغشوم ؟

أنا على يقين من أن حافظاً كان يعلم حق العلم أنهم ليسوا (أنبل الأقوام غاية) ، وأنهم ليسوا (أطباء الشعوب) كما يقول ، ولكنه رجل تنطوى نفسه على الذعر والاستسلام . ويخيل إليك — وهو يخاطب مكمهون — أنه يخاطب ولى الأمر فى مصر الذى بيده العقد والحل كما يقول أحد المدافعين عنه[1] .

ويمعن حافظ فى اتجاهه هذا إمعاناً مزرياً حتى إنه يدعو السلطان حسين إلى أن يوالى الإنجليز وأن يوادّهم وأن يتعاون معهم ، لأنهم يخاصون لنا الود وينصروننا إذا استنصرناهم ؛ يقول من قصيدة يهنّئ بها السلطان بالسلطنة سنة ١٩١٥ :

ووالِ القـوم إنهمُ كـرام ميامين النقيبة حيث حـلّوا
لهم مُلكٌ على التاميز أضحتْ ذراه على المعانى تستهلّ
وليس كقومهم فى الغرب قوم من الأخلاق قد نهلوا وعـلّوا
فإن صادقتهم صـدقوك وُدّاً وليس لهم إذا فتشتَ مثل
وإن شاورتهم والأمر جـدٌّ ظفرتَ لهم برأى لا يـزل
وإن ناديتهم لبّـاك منهم أساطيل وأسيافٌ تُسلُّ
فادّهم حبـال الود وانهض بنا فقيادنا للخير سهل[1]

ومهما قيل من أن الظروف الاستثنائية التى كانت تكتنف مصر آنئذ هى التى دعت حافظاً إلى ألا يقول غير هذا ، فلن تغتفر له الوطنية المصرية مثل

---

(١) حافظ إبراهيم والشاعر السياسى ص ٧٨ .
(٢) الديوان ١/٦٧ .

هذا الشعر الغث . وكان فى استطاعته أن يخلد إلى الصمت ولا تثريب عليه ، فالصمت أزكى وأكرم من شعر يقبض الأفئدة ويُغثى النفوس .

وكان حافظ داعية يأس وقنوط ، يثبط عزائم المصريين ويقعدهم عن الكفاح ويحطم آمالهم فى النهوض بوطنهم ، ويطفئ فى نفوسهم جذوة الوطنية المتأججة . . . اقرأ قوله لما رأى العلم البريطانى يخفق على مدينة الخرطوم :

دعـانى وما أرجفـتما باحـتماله فإنى بمكر القوم (شِقّ) زمانى[١]
وأكبر ظنى أن يـوم جـلائهم ويوم نشور الخلق مقـترنان
إذا غاضت الأمواه من كل مُزبد وخـرّت بروج الرجم للحدثان
وعـاد زمان السمهرىّ وربـّه وُحـكّم فى الهيجاء كل يمـانى
هنـاك اذكُرا يوم الجلاءِ ونبّهـا نيـاماً عليهم يتـدب الهرمان[٢]

وزعم كاتب فرنسى فى سنة ما أن جلاء الإنجليز سيكون فى أكتوبر من نفس السنة ، فعلق حافظ على ذلك بهذين البيتين اللذين يدلان على نفس ممتلئة باليأس :

كم حـددوا يوم الجـلاء الذى أصبـح فى الإبهـام كالمحشر
وسنّ قـومُ الطيش من جهلهم كذبةَ (إبريـل لأكتـوبر)[٣]

فحافظ — كما ترى — يصور لنا ناحية الثورة الهزيمة والنفوس الخائرة . ولم يكن حال شوقى (شاعر السراى) كحال حافظ (شاعر الشعب) . فقصائد شوقى تمور بنفحات الوطنية المتوفزة ، حتى قصائد المديح التى كان يزجيها للخديو ، لا تخلو من ترديد لمجد مصر التليد والتفاؤل بزوال غمامة الذل عنها وإقالة عثرتها ، واستعادة الاستقلال الأثير فى كل القلوب . وكان شوقى يمزج

---

(١) شق (بكسر الشين) : كاهن عربى قديم اشتهر بمعرفة الغيب ، وكان فى زمن كسرى أنو شروان .
(٢) الديوان ٢/٥ .
(٣) الديوان ٢/١٠٩ .

ذلك بنفحات من روحه العالى ليملأ القلوب ثقة فى المستقبل الباسم ، ويصور ما يجيش فى قلوب أهل عصره من الآمال . أما حافظ فمسلكه يدعو إلى العجب . فأنت لا تسمع من « شاعر الشعب » بيتا يحيى فى نفوس المصريين أملاً طالعاً ، أو يدعوهم إلى تضحية أو جهاد . وإذا اضطره الموقف إلى أن يستحث المصريين على المطالبة بحق من حقوقهم رجاهم أن يترفقوا فى الطلب ، كقوله من قصيدة أنشدها فى الحث على تعضيد مشروع الجامعة :

لا تهجعــوا إنهم لن يهجعــوا أبداً　　وطالبــوهم ولكن أجملوا الطلبا(١)

فالفرق بين الشاعرين — كما ترى — كبير جداً ؛ فشوقى كان يناجى أحلام الماضى وآمال المستقبل ، ويهيب بالهمم أن تستيقظ ويصدح بالعفو عما فات والتأهب لما هو آت . فى حين كان حافظ قابعاً فى ثلة من أصحابه أو قاصداً أبوابَ عظماء زمانه ، يمدح هذا ويحيى ذاك . ومن الغريب أنه مدح شاعر الثورة العرابية (البارودى) عام ١٩٠٠ ورثاه عام ١٩٠٤ ولم يشر إلى موقفه من الثورة ودَوْره فيها ، ولم يذكر من مواقفه الحربية إلا يوم (كريد) فى الحرب العثمانية اليونانية .

حقًّا إن حافظاً كان يصور الجانب الهزيم المحطوم من مصر . . . ذلك الجانب الذى أرهبه يوم الإسكندرية ويوم التل الكبير ، ورنّق عليه شبحُ الذعر من القوة الغالبة ، حتى كاد — وهو يرتعد فرقاً — يلثم اليد التى تمتد إليه بالسيف .

والحق أن بؤس حافظ قد طبع وطنياته بطابع خاص هو طابع التشاؤم والضعف والقنوط وتحطيم مجاديف الجهاد .

وأحيانا يستبين طريق الرشد ، فيبثّ الأمل فى نفوس المصريين وأهل الشرق ، كقوله من قصيدة أنشدها فى مدرسة مصطفى كامل :

فدينــاك يا شرق لا تجــزعن　　إذا اليــوم ولّى فراقب غــدا
فكم محنــة أعقبت محنــة　　وولّتْ سراعاً كرجع الصدى

(١) الديوان ١/٢٧٢ .

فلا يوئسنَّك قيلُ العداة وإن كان قيلا كحزّ المُدى(١)

ويحسن الظن بالنشء فيقول من نفس القصيدة :

فيأيها الناشئون اعملوا على خير مصر وكونوا يدا
ستُظهر فيكم ذواتُ الغيوب رجالا تكون لمصر الفدآ

وينبثق فى نفسه فجر الأمل وتقوى ثقته بالأمة المصرية فيقول مخاطباً سعد زغلول من قصيدة وقد تهيأ لمفاوضة الإنجليز سنة ١٩٢٤ :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفى البلاد دخيل
عُزْلٌ ولكن فى الجهاد ضراغم لا الجيش يفزعها ولا الأسطول(٢)

ويبث الحماس فى نفوس الشباب ليستعيدوا مجد بلادهم الغابر فيقول من قصيدة يحيّ بها العام الهجرى (عام ١٣٢٨ ﻫ ١٩١٠ م) :

أهلا بنابتة البلاد ومرحباً جددتم العهد الذى قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلربّ مغلوب هوى ثم ارتقى
فتجشموا للمجد كل عظيمة إنى رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصْل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله وتعلقا
عارٌ على ابن النيل سباق الورى مهما تقلّب دهره أن يُسبقا(٣)

ويهيم حبًّا بمصر فيقول من قصيدة نظمها سنة ١٩٠٩ بمناسبة محاولة مد امتياز شركة قناة السويس أربعين سنة أخرى :

وما أنا والغرام وشاب رأسى وغال شبابىَ الخطب الجُسام
لعمرك ما أرقتُ لغير مصر ومالى دونها أمل يُرام(٤)

ويستهل قافيته المشهورة بقوله :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حب مصر كثيرة العشاق

---

(١) الديوان ١/٢٦١ .
(٢) الديوان ١/١١٠ .
(٣) الديوان ٢/٥٨ .
(٤) الديوان ٢/٥٣ .

إنى لأحمـــل فى هـــواك صبابةً يا مصر قد خرجتْ على الأطواق[١]

ونحن لا نجرد حافظاً من الوطنية ، ولا نشك فى أنه كان يحب وطنه حبًّا جمًّا ، وقصائده التى ذكرنا طرفاً منها شاهدة على ذلك ، وكلها تفيض حبًّا للوطن وإشفاقاً على مصيره وأنيناً من وطأة المحتل ، ولكنها قصائد ليس لها نهج مرسوم ولا تتوافر فيها عناصر الشعر الوطنى الحق الذى حددنا سماته آنفاً ، وكانت تقال فى فورة الأمر وعنفوانه فلا تخطئ هدفها فى وقتها ، إذ تجد النفوس مهيأة لتلقيها ، أما بعد ذلك فلا تثير فى نفوسنا شيئا من الإعجاب الذى أحس به الناس حين سمعوها أو قرأوها فى حينها . فحافظ فى حقيقة الأمر قد أخفق فى فى التهدّى إلى حقيقة الشعر الوطنى الصحيح .ونحن نلاحظ أنه كان يردّد دائماً الآراء والأفكار التى كانت تجرى على ألسنة الناس ، ولم يكن يأتى بشىء جديد أكثر من أن ينظم هذه الآراء وتلك الأفكار شعراً ، وفى ذلك يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : «فإذا تهيأ (أى حافظ) للشعر أو للنثر عمد إلى الآراء التى تختلج حينئذ فى النفوس وتستفيض فى المجامع وتتردد فى الصحف فيجمعها فى باله ويديرها فى خاطره »[٢] . ومن ثم اشتهر حافظ بأنه شاعر الشعب الذى يعبر عن آلامه وآماله . وإلى هذا يشير المرحوم الأستاذ المازنى فيقول : « وحافظ عندى لسان العصر الذى عاش فيه وصوت الشعب الذى أنجبه »[٣] . وقد نظم حافظ فى جميع المسائل القومية والاجتماعية التى كانت محور أحاديث الناس فى زمنه، مثل اللغة الفصحى ، والسفور والحجاب ، وأزمات المال ، ومضاربات الأغنياء فى سوق القطن ، وأضرار الشركات وغير ذلك . ولكنه كان يسجل هذه الأحاديث ليس غير .

وقد اتخذ حافظ كتاب « ليالى سطيح » ميدانا لينفث فيه حقده على الإنجليز[٤] . وقد أكبر ذلك منه بعض الأدباء واعتبروه نبيًّا من أنبياء الوطنية .

---

(١) الديوان ١/٢٧٩ .

(٢) انظر كتاب (فى أصول الأدب) للزيات ص ١٠٩ .

(٣) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٢٨ .

(٤) انظر « ليالى سطيح » ص ٦٨ وما بعدها .

والواقع أن ما ذكره فى هذا الكتاب لا يعدو أن يكون وصفاً لسوء حالنا فى ذلك الزمن الأغبر ، لا يستنهض همة ، ولا يستثير حماسة ، ولا يترك فى النفوس أثراً أكثر من مصمصة الشفاه رثاءً لهذه الحال . أما الدعوة إلى الجهاد وتحطيم عوامل اليأس من النفوس المريضة فلم يُعنَ به حافظ ، ولعله لم يكن من طبعه أن يُعنَى به .

ومن أشد ما يؤخذ على حافظ تذبذبه وميله حيث تميل الريح ، وذلك فيه خطر شديد ، لأنه يلعب بعقول الناس ويشككهم فى مشاعرهم الوطنية ، وفى مواقفهم من القضايا السياسية الكبرى ... كان حافظ لا يمدح الحاكم لشخصه ، وإنما يمدح الجالس على الكرسى ، حتى إذا سقط من فوقه لا يتورع حافظ عن ذمه وإظهار الشماتة به . وكان تقلبه هذا من الأسس التى قامت عليها دعائم حياته . . . كان يتحول من الأمر إلى نقيضه ، ويجهر بذلك فى غير ما تحرّج ما دام يتوقع أن هذا التحول يسوق إليه مغنماً أو يقربه من ذوى السلطان . وإن كنت فى ريب من هذا فاسمع قصته مع السلطان عبد الحميد خليفة آل عثمان :

كان عبد الحميد حاكماً مستبداً ، وكان يُخمد كل صوت يطالب بالإصلاح ولو برز كالنبأة الخافتة ، بوساطة عيونه الأيقاظ المنبثين فى جميع أطراف الدولة . بيد أن هذا الضغط الشديد جعل الجماعات السرية تخرج من غياباتها وتجهر بمعارضة السلطان الطاغية . وظهر من هذه الجماعات حزب عُرف بحزب (تركيا الفتاة) ، أنشأه ثُلة من الشبان المخلصين للوقوف فى وجه الطاغوت وحمله على إعادة الدستور الذى كان قد ألغاه عقب توليه الخلافة لتتم له مقومات الحكم الاستبدادى المطلق . . . فاضطهدهم السلطان وفرّق جمعهم قِدداً وطرّدهم شر مُطَرَّد . ولما حلّت ذكرى عيد جلوسه سنة ١٩٠١ هنأه حافظ بقصيدة ملأها بالمدح الكاذب والزلفى الممقوتة ، وقد استهلها بهذه الأبيات :

لمحتُ جلال العيد والقوم هُيّب ... فعلّمنى آىَ العلا كيف تُكتب
ومثّل لى عرش الخلافة خاطرى ... فأرهب قلبى ، والجلالةُ تُرهب
سلوا الفلك الدوار هل لاح كوكب ... على مثل هذا العرش أو راح كوكب

وهل أشرقتْ شمس على مثل ساحة ... إلى ذلك البيت «الحميدى» تُنسب[١]

وكان حافظ يعلم أن عبد الحميد من شر سلاطين آل عثمان وأشدهم فسقاً وجوراً ، ولكنه يقول فيه :

تجلّى على عرش الجلال وتاجه ... يهشّ وأعواد السرير تُرحّب
سما فوقه والشرقُ جذلان شيقٌ ... لطلعته والغرب خذلان يرقب
فقام بأمر الله حتى ترعرعتْ ... به دوحةُ الإسلام والشرْك مُجدب

ويهاجم حزب (تركيا الفتاة) هجوماً عنيفاً مشيراً إلى قوة الخليفة وسعة سلطانه فيقول :

فِدًى لك يا (عبد الحميد) عصابة ... عصتْ أمر باريها وحزبٌ مذبذب
ملكتَ عليهم كل فج ولجة ... فليس لهم فى البر والبحر مهرب
تَقاذفُهم أيدى الليالى كأنهم ... بها مثلٌ للناس فى القوم يُضرب
وكم سألوها ثمّ أذيالك التى ... لها فوق أجرام السموات مسحب
فما بلغوا سؤلاً ولا بلغوا مُنًى ... كذلك يشقى الخائن المتقلب

وتتابعت مدائحه للسلطان عبد الحميد فى كل مناسبة . ولما اضطرته الحوادث إلى أن يُعلن الدستور مرة أخرى سنة ١٩٠٨ عاد حافظ يذكر بالحمد هؤلاء الأحرار ويحيى يوم عودتهم إلى الوطن الذى جنى ثمار جهادهم :

يا يومَ عاد النازحون لأرضهم ... يتسابقون لرؤية الأوطان
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا ... باللثم عهد خليفة الرحمن
وتعانقوا بعد النوى كخمائل ... يحلو بهنّ تعانقُ الأغصان[٢]

ويعرّض ببطانة السوء التى كانت توغر صدر السلطان على كل حر أبىّ ، ويشير إلى ما ينتظرهم من حساب عسير :

ولّى زمان المعتدين كما انطوتْ ... حِيَلُ الشيوخ وإمرة الخصيان
وُضع الكتابُ وسيق جمعهمُ إلى ... يوم الحساب وموقف الإذعان

---

(١) الديوان ١/١٥ .
(٢) الديوان ١/٤٤ .

قد جاء يومهمُ هنا ، وأمامهم بعد النشور هناك يومٌ ثانى

ثم دالت دولة عبد الحميد وسقط عن عرشه ، فقلب له حافظ ظهر المجنّ ونظم قصيدة بمناسبة خلعه وتولية السلطان محمد الخامس فى مايو سنة ١٩٠٩ مطلعها :

لا رعى الله عهـدها من جـدود كيف أمسيت يا ابن (عبد المجيد)[1]

وفيها يندد بحكم عبد الحميد ويشير إلى ما كان يأتيه من ضروب الفساد وألوان الظلم :

مشبعَ الحـوت من لحوم البرايا ومجيـعَ الجنـود تحتَ البنـود

يشير بذلك إلى الذين كان يأمر السلطان عبد الحميد بإغراقهم فى مضيق البسفور . ثم يغمزه غمزات تناقض ما قاله فى مديحه إبان سلطانه :

أصحيحٌ ما قيـل عنك وحـقٌّ ما سمعنا من الرواة الشهـود
أن عبد الحميد قد هدم الشر ع وأربى على فعال الوليـد ؟
أصحيـحٌ بكيتَ لمـا أتى الوفـ ـد ونابتْـك رعشةُ الرعـديد ؟
ونسيتَ الآبـاء والمجـد والسؤ دد والعـز يا كريم الجـدود ؟

وينصرف عن عبد الحميد وعن دولته الزائلة ، ويستقبل السلطان الجديد :

حىّ عهد الرشاد يا شرقُ وابلـغْ ما تمنيتَ من زمـان بعيـد
قد تولى (محمـد الخامس) الملـ ـكَ فأعظِمْ بتـاجـه المعقـود
وتجـلىّ فى مهرجـان تجـلىّ سيفُ (عثمان) فيـه بالتقليـد
وقف الدهرُ خاشعاً إذ رأى السيـ ـفين فى قبضـة العـزيز المجيد
طأطئى للجـلال يا أمم الأر ض سجوداً ، هذا مقام السجود
علم الله أن عهـد (رشـاد) خير فأل بردّ عهد (الرشيد) .

وفى يوليه من السنة نفسها أقيم فى حديقة الأزبكية حفلٌ بمناسبة عيد الدستور وأنشد فيه حافظ قصيدة مطلعها :

---

(١) الديوان ٢/٤٣ .

أجَلْ هذه أعلامه ومواكبه هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه[1]

وفيها يصف هؤلاء الوطنيين الذين كانوا فى نظره (عصاة متمردين) بأنهم أبطال مصلحون وحماة للدستور :

فمن يطلب الدستور بالسوء بعدما حمته يد (الفاروق) فالله طالبه
إذا (شوكتُ) الفاروق قام منادياً إلى الحق لباه (نيازى) وصاحبه[2]
ثلاثة آساد يجانبها الردى وإن هى لاقاها الردى لا تجانبه
روَتْ قول (بشار) فثارت وأقسمت وقامت إلى (عبد الحميد) تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعّر خدّه مشينا إليه بالسيوف نعاتبه)
رجالٌ من الإيمان ملأى نفوسهم وجيش من الأتراك ظمأى قواضبه

ولا ينسى حافظ أن يعرّج على السلطان المنْفى (عبد الحميد) فيسلقه بلسان حديد ، ويخاطبه خطاب الشامت الحنق ، وهو الذى كان بالأمس — فى نظره — الحاكم العادل الذى (ترعرعت به دوحة الإسلام) . وكان الأجمل به أن يترك الرجل فى محنته يقاسى مرارة المنفى وآلام الوحشة . ولكن هذا ديدن حافظ الذى عُرف به طول حياته . . . يقول :

يناديه صوت الحق : ذُقْ ما أذقتَهم فكل امرئ رهنٌ بما هو كاسبه
همُ منحوك اليوم ما أنت مُشْته فرُدَّ لهم بالأمس ما أنت سالبه
ودع عنك ما أمّلتَ إن كنتَ حازماً فلم يبق للآمال فضلٌ تجاذبه
مضى عهدُ الاستبداد واندكّ صرحه وولّتْ أفاعيه وماتت عقاربه

ثم يمدح الجالس على العرش السلطان (رشاد الخامس فيقول) :

يُطيفون بالعرش الكريم وربُّهُ تُطيف بهم آلاؤه ومناقبه
لتهنئْ أمير المؤمنين محمداً خلافته فالعرش سعدٌ كواكبه
ستملك أمواجَ البحار سفينهُ كما ملكتْ شمَّ الجبال كتائبه

وظل حافظ يهتبل كل فرصة ليعرّض بالسلطان عبد الحميد ويظهر الشماتة

---

(١) الديوان ٢/٤٨ .

(٢) يريد (شوكت ونيازى وأنور) من أبطال حزب (تركيا الفتاة) ، وكان لهم الفضل الأكبر فى إعادة الدستور .

به وكأنه عدو لدود قديم ، حتى أفل نجم الخلافة العثمانية .

وهذه المواقف المتناقضة التى كان يضطرب فيها حافظ ترجع — فى نظرى — إلى أمرين :

الأول : أنه كان رجلا تغلب عليه طبيعة الخطيب الشعبى ، ولهذا كان يميل إلى مجاراة التيارات القوية التى تسيطر على الجماهير . فهو دائماً أبداً يساير النزعات الشعبية التى تتناقض ولا تستقر على حال .

الثانى : أنه كان رجلا مذعور القلب ، يرى السلامة فى ممالأة ذوى السلطان ، حتى إذا دالت دولتهم انقلب عليهم وشيّعهم بالذم والشماتة واستقبل خلفاءهم بالمديح والإطراء .

وهذا التناقض الصريح يكاد ينفرد به حافظ دون غيره من شعراء عصره . ولم يكن زميله شوقى كذلك مع أنه كان مرتبطاً بسياسة السراى التى كانت تلتمس القربَ من الجالس على عرش الآستانة مهما يكن شأنه . فقد كانت طبيعة المؤرخ تغلب على شوقى ، ولم يكن يبالى بإرضاء الجماهير قدر مبالاته بإرضاء النزعة الفنية فيه ، فنية التاريخ وفنية الشعر . ولهذا كان لا يميل مع هوى الجماهير ، فلا ينقض فى يومه ما قاله فى أمسه . وقد ظل على وفائه للسلطان المخلوع (عبد الحميد) الذى أكرم وفادته واستضافه فى الآستانة ، فشيعه بالقصيدة المشهورة التى مطلعها :

سل (يلدزا) ذات القصور هل جاءها نبأ البـــدور[1]

وهى ناطقة بما كان يكنّه الشاعر لهذا العاهل الطريد من آيات الوفاء والتقدير .

* * *

وبعد فإننا نستطيع أن نقول — فى غير جوْر — إن شعر حافظ الوطنى لم يكن طيباً ، بل كان داعية قنوط واستسلام ، وما اتسم منه بنفحات الوطنية تجده ضئيل الأثر ، إذ لم تتوافر فيه صفات الشعر الوطنى الحق الذى يؤجج نار

---

(١) الشوقيات : ١/١٣٦ .

الحماسة فى النفوس ويدفع إلى الثورة ضد الغاصب الظلوم فى تضحية وفداء .

وما من شك فى أن بؤس حافظ وخوفه قد خلقا منه نفساً مريضة تتوجس الشر من كل شىء ، ولهذا كان يصطنع المداهنة والرياء ويبلغ فى ذلك مدًى تبرأ منه الوطنية والنفس الأبية كما رأيت .

٧

الشكوى

نشأ حافظ نشأة يكتنفها البؤس ويُغشّيها الشقاء، فقد قضى أبوه وهو ما يزال فى المهد صبيًّا ، وشنّت عليه الأيام فى مستهل حياته حرباً شعواء تحدثنا عنها بإسهاب فى الفصول السابقة .

ولما أُقصى عن عمله فى السودان عاد إلى مصر كسير القلب مكلوم الفؤاد ، وأخذ يبحث عن عمل يرتزق منه فلم يوفق . فضاقت الدنيا أمام ناظريه وأخذ يشكو ويندب حظه الأسود فى هذه الدنيا :

سعيتُ إلى أن كدتُ أنتعل الدما ... وعُدتُ وما أعقبتُ إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودّع ... رأى فى ظلام القبر أُنساً ومغنما[1]

ويقول :

لكنني غير مجدود وما فتئتْ ... يد المقادير تُقصينى عن الأرب
وقد غدوتُ وآمالى مطرَّحة ... وفى أمورى ما للضب من ذنب[2]

وأمثال هذا الشعر كثير . وأغلب الظن أن حافظا لم يكن جادًّا فى سعيه ، لأن العمل فى ذلك الحين كان مُيسَّراً لكل من يحمل شهادة ، إذ كان

---

(١) الديوان ٢/١١٤ .
(٢) الديوان ٢/١١٦ .

حملة الشهادات قلة ضئيلة جداً . ولكن حافظاً كان متواكلاً كسلان ، ينشد عملا طيباً يقبض منه الراتب الضخم دون أن يكلفه شيئاً من الجهد والعناء .

ولم يتصل حافظ بسلطان أو أمير ، وقد حاول أن ينال شيئاً من الحظوة التى نالها شوقى عند الخديو عباس ، فكان يحتفل بمديحه فى المناسبات المختلفة ، ويختار لقصائده من القوافى (كل كاسية تاهت بنضرتها فى ثوبها القشب) ، ولكنه برغم هذا الاحتفال لم يبلغ بقصائده المكانة التى كان يبتغيها . وكان يدافع عن قِصَر نفسه بأنه شاعر مُقلّ ، وأن مدح الملوك يجب أن يخلو من الثرثرة . وأحيانا يحب أن يتقرب إلى شوقى فيقول إنه (أى شوقى) لم يترك له قولا يحاوله :

لم يُبق (أحمـــد) من قول أحاوله فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب

وليس من شك فى أن حافظاً كان يشعر بمرارة الحرمان من عطف الخديو وآلائه ، وكانت نفسه تتشوف إلى أن يتيح له شوقى مكاناً ولو ضيقاً لدى صاحب الأمر . وقد انضمّ هذا الحرمان إلى ألوان الشقاء التى عاناها الشاعر فى حياته ، فنجم عن ذلك أن اتشحت نفسه بثوب من الحزن والبرَم بالحياة ، فأكثر من الشكوى ، وأخذ يندب حظه فى هذه الدنيا ، ورانت على نفسه مسحة كثيفة من التشاؤم والضيق وضعف الأمل فى صلاح حال الوطن ، فجاء شعره مثبطا لعزائم الشباب ، مصوّرا لهم مستقبل وطنهم فى لوحة قاتمة الظلال .

وقد سرى هذا الشعور القاتم فى معظم شعره . حتى الظواهر الطبيعية من موج وبحر وجبل وليل ونهار ، يشهدها فلا تثير فى نفسه إلا النواحى الحزينة المظلمة بدل أن تثير فيها الإحساس بالمتعة والجمال .

وهذه النفس الحزينة المتشائمة الساخطة تجيد — من غير شك — تصوير البؤس ومشاركة البائسين . ولم أر شاعراً عربيًّا فى العصر الحديث يحسن وصف مآسى المنكوبين والمكروثين مثل حافظ ، لأنه يصف ما يحسه فى حرارة وصدق .

وقد استمرأ حافظ عادة الشكوى ، فلم يكفّ عنها طوال حياته حتى فى أيام رخائه وصلاح حاله . . .

كان موظفاً بدار الكتب يتناول مرتباً ضخماً يسيل له اللعاب فى ذلك

الحين ، وكان هذا المرتب يحقق له كل رغائبه ؛ فلا يضنّ على نفسه بما تتشهاه، ولا يضن على إخوانه بثمن ما يطعمون وما يشربون ، ولا يستعمل فى تنقلاته إلا سيارة الأجرة ، ولا يدخن إلا (السيجار) الفخم ، ويولم الوليمة فينفق فيها بضعة جنيهات . . . ومع كل ذلك نراه يشكو البؤس ويكثر من الشكوى ويتلمسها فيما لا يدعو إليها ، بل إنه يطلبها فيما هو خليق بالغبطة والرضا . ويقول الشيخ البشرى عنه : « على أنه ما فتئ طوال حياته يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألف جُنّ جنونه أو ينفقها فى يوم إن استطاع . فإذا استغلقت عليه أحياناً وجوه الإنفاق عدّ هذا أيضا من معاكسة الأقدار »[١] .

وليس لدينا من سبب لهذه الشكوى الدائبة إلا ما يقوله شباب ذلك العصر ممن أصبحوا الآن من كبار المفكرين ؛ فهم يذكرون أن الشكوى كانت بدعة من البدع التى شاعت فى أوائل هذا القرن ، وأن حافظاً كان حامل لوائها . . . يقول الدكتور طه حسين : « كان البدع فى أيام صباى تكلّف البؤس وانتحال سوء الحال والافتنان فى شكوى الناس والزمان ، وكان ذلك بدعاً فى العصر الأول من هذا القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروّجه »[٢] .

ويخبرنا الشيخ البشرى أن حافظاً كان يتخذ الشكوى من البؤس وسيلة لشحذ قريحته وتجويد صناعته فيقول : « ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته فى باب شكوى الزمان ، وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر . فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ويتفقده تفقداً إيثاراً لتجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام »[٣] . ثم يذكر الشيخ البشرى بعد ذلك أن الشكوى « كانت دعوة للمرحوم الإمام محمد عبده نحسب أن حافظا يحققها بيده إذا قصرت فى تحقيقها الأيام » . ومعنى ذلك أن كلمة (البؤس) التى كان يرددها حافظ لم يكن يعنى بها مدلولها المادى المفهوم ، وإنما كان يرمز بها إلى أمر معنوى .

---

(١) ذكرى الشاعرين ص ٥١ .

(٢) حافظ وشوقى لطه حسين ص ١٠٩ .

(٣) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٢٦ .

فلم يكن بؤس حافظ منشؤه الحرمان من المال ، لأن الرجل كان موفور الرزق ، يتناول مرتباً كبيراً ويصيب من أصدقائه الأغنياء كثيراً من العطايا والهبات . ولعله لم يكن مملقاً قبل وظيفة دار الكتب إلى الحد الذى يصوره لنا شعره الشاكى ، بدليل أنه تزوج سنة ١٩٠٦ ، وليس من المعقول أن يبنى بزوجة ويجعل من نفسه رب أسرة وهو لا يكاد يجد قوت يومه كما يظن .

وأنا أعتقد أن حافظاً كان يرى نفسه غير حظيظ فى هذه الدنيا وهو الذكى الأريب — كما كان يعتقد — بالقياس إلى ما ناله شوقى من مكانة ملحوظة فى السراى أفاد من ورائها ثروة ضخمة . وقد حاول حافظ أن يصل إلى ما وصل إليه شوقى فأخفق . وأراد أن يتقرب من خليفة الآستانة فحيل بينه وبين ذلك .

وكان يتطلع إلى عيش أرغد وأرخى مما هو فيه ، ويقول صديقه الأستاذ محفوظ : « أنا لا أعدّ بؤسه إلا بؤساً فى الرغبة والطموح . كان فيه خلق الأدباء المتطلعين إلى الترف والحياة الناعمة التى يزعمون أنها من حقوقهم وحدهم ، لأنهم فقهوا جمال الحياة ونعيمها ، ولأنهم فوق الناس فهماً وإدراكاً ، فهم أحق منهم بكل خير فى هذه الدنيا »[1] .

ولهذا أرجح أن بؤس حافظ كان بؤساً نفسانيًّا روحانيًّا ، ولم يكن بؤس المادة والحاجة ، أى أن بؤسه ينحصر فى آماله المنهارة وقصوره التى بناها فى الخيال ولعبت بها أيدى الرياح الهُوج .

والظاهر أن عادة الشكوى التى لا تنقطع نَحيزةٌ نجدها فى الشعراء منذ القدم . فالأحوص الأنصارى وأبو العتاهية ومروان بن أبى حفصة وأبو تمام والبحترى والمتنبى كانوا لا يكفون عن الشكوى ، مع أنهم كانوا أغنياء يملكون الكثير ، ويعيشون عيشة ناعمة رطيبة .

وأيًّا ما كان الأمر فقد أخذ حافظ يذكر البؤس ويردّد الشكوى فى شعره وفى نثره ، وكأنه كان يجد فى ذلك راحة لنفسه ولعقله . وكان لا يترك مناسبة إلا ذكر البؤس والبائسين وما يلقونه من مغالبة الأيام وعنت الدهر . . . يقول

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨١ .

مخاطباً أستاذه الإمام محمد عبده فى إهدائه إياه كتاب (البؤساء) : « إنك موئل البائس ومرجع اليائس . وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين . . . وقد عُنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب » . ويفتتح المقدمة بقوله : « هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أُخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه بائس وعربه معرّبه وهو بائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه وعرّبه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه » ، ويبين أن الذى أعانه على تجويد الترجمة اتحاده والمؤلف فى الشقاء فيقول : « ولولا أنى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ علمى إلى مبلغ علمه . ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . . . ولما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء » .

ويقول بعضهم إنه كان لحافظ شخصيتان متناقضتان : إحداهما تنطوى على المرح والدعابة حين يتاح لصاحبها أن يلتقى بالناس ، والثانية منطوية على البؤس واليأس حين يخلو الشاعر إلى نفسه . ويستدلون على ذلك بالمداعبات الشعرية التى كان يرسلها إلى أصدقائه من السودان ، وهى مداعبات تنم على المرح وخلو البال ، وتخرج أحياناً عن حد التوقر ، مما يدل على أن صاحبها هانئ بحياته فى الظاهر على الأقل ، فى حين أنه كان يعانى إبان ذلك ألوانا شتى من الضيق والبؤس[1] .

ومهما يكن من شىء فقد لوّن البؤسُ نفس الشاعر بألوان من الأخلاق لا تكاد تفارقه ؛ فكان يُعجب بالبساطة والسذاجة ، ويضيق بالنظام والرسميات ، ويحتفى بمألوف العادات ، ولا يتطلع إلى تقليد الأرستقراطيين . بل كان شعبيًّا فى طبعه وفى حديثه وفى مأكله وفى مشربه وفى نظرته إلى الدنيا . كما كان صافى السريرة نقيها ، حاضر البديهة لماعها .

---

(١) انظر مداعباته لإخوانه بالديوان « الجزء الأول » ، وبخاصة صديقه محمد البابلى .

٨

الفكاهة

لقد وُهب حافظ رغم بؤسه خفة فى الروح وسرعة فى الخاطر وحضوراً فى البديهة . وقد خلق ذلك كله منه رجلا بارعاً فى الفكاهة وصوْغ النادرة . وليس من شك فى أنه كان يتخذ من ذلك وسيلة للتنفيس عن شقائه وحرمانه .

وكان حافظ فى بؤسه صورة صادقة للمصرى الصميم . فإن من أخص صفات المصرى أنه صاحب نكتة يرسلها فى كل وقت وفى كل مناسبة ، وبخاصة فى أحلك أيامه العصيبة ، بل إنه ينتزع نكاته من الخطوب التى تحدق به . وكذلك كان حافظ يتخذ من بؤسه معيناً لفكاهاته ونوادره .

وقد منحت الطبيعة حافظاً قدرة فائقة على إزجاء الفكاهة اللطيفة والنادرة المستملحة ، فراح يضحك من البؤس ومن الشقاء ومن الأوضاع المقلوبة ومن الأحداث ومن كل شىء .

وكان أعجوبة الأعاجيب فى استخلاص النكتة مما يصادفه ، ويقول عنه المرحوم أستاذنا الدكتور أحمد أمين : « كان له ذوق بارع فى اختراع النكتة من كل ما يدور حوله ، فما يسمع حديثاً أو يعرض أمامه شىء حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيصوغ ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق صدورهم وقرارات قلوبهم ، فكان فى مجالسه موضع إعجابهم ومنبع سرورهم . يرسل النكتة من بديهة حاضرة فتستخف الوقور وتستهوى الرزين . فهو زينة المجلس وبهجة النادى »[1] . وكان حافظ — إلى جانب ذلك — يحفظ رصيداً ضخماً من مُلح العرب وطُرفهم يُتْحف بها جُلاّسه فيقبلون عليه فى شغف شديد . فلا عجب إذا هَوَيتْه الأفئدة ، ولا غرو إذا غصّت مجالسه بطلاب

(١) مقدمة الديوان ص ١٦ .

المتعة والبهجة يلتفون حول رجل « خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة » كما يقول صديقه الشيخ البشرى[١].

وكانت سخريته من تصرفات الناس ومفارقاتهم آية فى اللباقة والظرف وحضور البديهة ، والسخرية أرقى أنواع الفكاهة ، كما تحتاج إلى ذكاء وخفاء ومكر كما يقول صديقنا الأديب الدكتور شوقى ضيف[٢] . ولحافظ لفتات ساخرة عجيبة تنتزع الإعجاب والضحك . وحسبى أن أسوق إليك واحدة منها لتدرك مدى مهارته وسرعة خاطره :

يحدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ فيقول : « لما نزلتُ دار الكتب حديثاً التحقتُ بالقسم الأدبى فيها . وكان هذا القسم يتولى يومئذ طبع كتاب " أساس البلاغة " للزمخشرى . فجاءنا يوما مدير الدار ومعه ملزمة من المطبعة مهيأة للطبع الأخير ، ومعه حافظ . وكان المدير لا يحسن شيئاً إلا الخط ، فلو تقدم إليه نابليون وإسماعيل سرى المهندس والدكتور حسين هيكل وغيرهم من الأفذاذ المتعالم عنهم قبحُ الخط — أقول لو تقدموا لسعادته طالبين الالتحاق بأعمال الفراشين والسعاة ، لرفض طلبهم لقبح خطوطهم . .

« وجاء سعادته وجمعنا حوله ، وأخذ يقرأ علينا الملزمة المشكولة كلها شكلا كاملا ، إلا الأسماء المعروفة التى لا يخطئ فى قراءتها طفل فى كُتّاب . وكان من سوء حظه ، بل قل من سوء حظى أنا ، أن أول الملزمة كان شعراً ، وأن قائله هو الفرزدق ، وكان الاسم غير مشكول بالطبع . فقال وهو يقرأ علينا ، ويجلس منا مجلس الأستاذ من تلاميذه : قال الفرزدق ، وكسر سعادته الفاء . فلم يستطع غرورى وقلة خبرتى أن يسكتا عن هذا الخطأ الذى لا يخطئ فيه أحد ، فرددت قائلا : الفرزدق بفتح الفاء .

فانبرى شيخ من الذين قال فى شبيههم أبو حيان التوحيدى : " لقد شاخ فى الخدائع وتحنّك " وابتدرنى قائلا : " اخرس دا سعادة البك بيمتحنا " .

---

(١) ذكرى الشاعرين ص ١٥ .

(٢) الفكاهة فى مصر للدكتور شوقى ضيف ص ١٣ .

فلم يسكت حافظ الساخر ، بل التفت إلى الشيخ وقال : بس يا أستاذ السؤال ده صعب شوية »[١].

فحافظ كان مفطوراً على الفكاهة والسخرية . وأخباره مع أمراء الفكاهة فى زمانه — وبخاصة إمام العبد ومحمد البابلى وعبد العزيز البشرى — معروفة يتفكه بها الناس . ومجالس حافظ فى مقهى (متاتيا) وفى مقاهى (باب الخلق والناصرية) يعرفها كل الناس فى ذلك الحين ، ونحن لا نزال نتملح بها فى أيامنا هذه ، وهى كثيرة لا يحصرها عد[٢] .

وإنى لذاكرٌ لك طرفاً منها على سبيل المثال : يُروَى عنه أنه كان يلبس حلة لا يغيّرها ، فقال له أحد أصدقائه : لماذا لا تغير هذه البذلة ؟ فأجاب على الفور : لأن فيها صفتين من صفات الله : القِدَم والوحدانية .

ومرض أحد أصدقائه وعرف أن عنده المصران الأعور ، وهو عادة فى الجانب الأيمن ، وحدث أن أحس حافظ بألم فى الجانب الأيسر بعد أن انتهى من زيارة صديقه المريض ، فدخل فى وهمه أنه مريض بالمصران الأعور ، فقال له صديق طبيب : « إن المصران الأعور لا يكون إلا فى الجانب الأيمن ، فقال له : يمكن يكون أعور شمال يا أخى » .

وسمع حافظ أن إمام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً ، فلما التقى إمام بحافظ أسرّ إليه بأنه فى حاجة ملحة إلى مبلغ من المال ذكره له ، فقال حافظ على الفور : « والله يا مولاى كما خلقتنى » .

وأبصره أحدُ أصحاب الصحف الأسبوعية جالساً فى المقهى فأسرع إليه وقال له : إنما كنت أتفقدك لأقترض منك جنيها أنا فى أشد الحاجة إليه ، فضحك حافظ وقال : « عمرك أطول من عمرى » .

وكان شانئوه والمتحاملون عليه يعترفون بخفة ظله وحلاوة حديثه . . . فالأستاذ المازنى — رحمه الله — يقول إبان حملته القاسية عليه : وليس لنا عنده كما توهّم

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٦ .

(٢) انظر كتاب الدكتور شوقى ضيف « الفكاهة فى مصر » ص ١٦٧ وما بعدها .

بعضهم ثأرٌ نجزيه به ، فإن الرجل ليس بصديق لنا ولا عدو ، ولسنا نحتقره كما توهم آخرون ، ولكن نحتقر شعره ونزدرى مظاهر نفسه ، فإن الرجل ظريف المحاضرة ، مليح النكتة ، عذب المحادثة . ولا عيب فيه إلا أنه يحاول أن يقول شعراً ويعالج ما ليس فى طبعه » [١] . وغير المازنى يشهد لحافظ بالظرف وخفة الروح .

حقًّا كان حافظ بهجة المجالس وزينة المحافل ، لا يحتويه مجلس إلا رأيته يتنزّى تنزياً من ضحك ومن طرب ومن إعجاب . وقد رثاه الأستاذ عباس العقاد على قبره بقصيدة بدأها بقوله :

أبكـاءٌ وحـافظ فى مكـان تلك إحـدى طـوارق الحدثان
كنتَ أُنساً فكيف أمسيتَ يا حا فظ تدمى لذكرك العينـان [٢]

بيد أننا نلاحظ أن شعر حافظ قد خلا أو كاد من الفكاهة التى عُرف بها فى المجالس والسوامر ، ولا نجد لهذه الروح أثراً فى شعره إلا أثارات قليلة جدًّا أشبه بالدعابة الخفيفة منها بالنكتة والفكاهة . وسر ذلك — فيما أرى — أمران :

الأول : أنه كان يعتبر الشعر ضرباً من الفن الرفيع يجلّ عن أن تشوبه هذه الفكاهات ، أو بعبارة أخرى كان يعدّ الشعر ضرباً من الأدب الأرستقراطى لا يصح أن تدنسه هذه النوادر الشعبية .

الثانى : أنه كان ينطوى على حزن دفين بسبب ما عاناه من تنكر الأيام له . ويقول الأستاذ أحمد أمين : « إن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة لمظهر الخارجى . كان مظهره الخارجى ضحوكاً مرحاً ، لا يراه الرائى حتى يضحك من ضحكه ، ولا يكون فى مجلس حتى يملأه سروراً وضحكاً ، ولكنه فى أعماق نفسه حزين ، كالشمعة تضىء وهى تحترق ، أو كالممثل يجيد تمثيل دور الضاحك وهو فى نفسه يذوب حسرات » [٣] .

---

(١) شعر حافظ للمازنى ص ١٧ .
(٢) ذكرى الشاعرين ص ٢٠٣ .
(٣) مقدمة الديوان ص ٣٨ .

فحافظ كان يستعين بالدعابة — كنوع من السخرية بالحياة — لتخفيف حدة الشعور بالبؤس والحزن . فهو يتهكم بالدنيا ويصوغ ذلك فى قالب من الفكاهة التى تحمل أقسى معانى الألم كما عرفنا من تندره على حلته القديمة .

ويقول بعض الأدباء إن بؤس حافظ فى نفسه قد طفح كيله فتحوّل إلى نقيضه ،وقديماً قالوا : إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده . وهذا رأى له وجاهته .

والواقع أن حافظاً كان يجمع بين النقيضين : الحزن والمرح ، فالحزن « قد رسب فى نفسه أيام يُتمه ، وأيام فشله فى المحاماة ، وأيام خدمة الجيش ، وأيام تعطله ورزقه القلق الذى كان لا يعرف مورداً ثابتاً . وأما مرحه فقد كان ينبع من طبيعة نفسه ، ومن فلسفة اعتقدها كانت تستقى من سخريته بالحياة وبالناس » (١) .

على أن أشعاره التى تسرى فيها روح الدعابة لا تكاد تعدو بضع مقطوعات قليلة تُعدّ على أصابع اليد الواحدة ، مثل قصيدته التى قالها فى الدكتور محجوب ثابت رحمه الله . وكان الدكتور — كما يقولون — تطمح نفسه إلى أمرين : وزارة يتولاها ، وفتاة جميلة عريقة غنية يتزوجها . . . يقول حافظ فى مطلعها :

يرغى ويزبد بالقـــافات تحسبها ... قصف المدافع فى أفق البساتين
من كل قاف كان الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين (٢)

وفيها يصور أحلام الدكتور :

يبيت ينسج أحـــلاما مذهّبـــة ... تغنى تفاسيرها عن (ابن سيرين)
طـــوراً وزيراً مشاعاً فى وزارته ... يصرّف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عُطبـــول خـــد لَجّة ... حسناء تملك آلاف الفدادين (٣)

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٤ .
(٢) الديوان ١/١٨٩ .
(٣) العطبول من النساء : الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . والخدلة : الممتلئة الذراعين والساقين .

يُعنى من المهر إكراما للحيته وما أظلّته من دنيا ومن دين

ومثل قصيدته التي أنشدها في حفل أقيم بطنطا تكريماً لصديقه المرحوم « حفني ناصف » لانتقاله من القضاء إلى التفتيش (بنظارة المعارف) ، وفيها كثير من الدعابات التي تدل على خفة روح حافظ ، يقول منها :

لولا الحياء ولولا ديني وعقلي وسني
لقمت في يوم حفني أدعو لسكرة (بنّي)
لا تنس عيشا تولى ما بين شرح ومتن
ولّى شبابك فيه ما بين مدٍّ وغنّ
وذقتَ من (جاء زيد) ومن شروح الشُّمُنِّي
ومن حواشي الحواشي على متون (ابن جني)
ما لم تُذقك الليالي قلبن ظهر المجنّ
أيام (سلطان) يلهو (بمشّه) ويغني
يبيت يقصع ما لم أتمّه أو أكنّي
يشكو إليك وتشكو إليه عيشة غبن
أيام يدعوك : (حفني) من الحياة أجرني
هات المسدس إني سئمتُ (مشي) و(جُبنى)
من لي بدرهم لحم عليه حبة سمن
قرمتُ والله حتى صاحت عصافير بطني[1]

ثم أحسّ حافظ بأنه قد خلع عن الشعر ثوب الوقار والأرستقراطية بهذه الدعابات الخفيفة ، فاعتذر عن هذا المزح ، وأخذ يلقي التبعة على صديقهم الدكتور (إبراهيم شدودي) وهو شاعر معروف ، وكان قد نظم مقطوعة في تكريم حافظ نحا فيها هذا النحو من المزح ، وذكّر حافظاً بعهده السابق في الجيش . . . يقول حافظ من نفس القصيدة :

أسرفتُ في المزح فاصفح يا سيدي واعف عني

(١) الديوان ١/١٧٩ . القرم : شدة الشهوة إلى اللحم .

فالذنب ذنب شدوى فالعن (شدودى) ودعنى
قد سنّ فينا مُزاحاً على الحقيقة يجنى
ذقتُ الأمرّين منه فسل (سليما) وسلنى[1]
واسمع مديح محب يُطرى بحق ويثنى

ومن دعاباته قصيدة بعث بها إلى أحد أصدقائه وكان معروفاً بشدة شحّه :

ولقد عجبت لبخله ولكفّه المستحجر
لا يصرف السُّحتوت إلا وهو غير مخيّر
لو أن فى إمكانه عيشاً بغير تضوّر
لاختار سدّ الفتحتـ ين وقال : يا جيب احذر[2]

وبعث بأبيات إلى الأستاذ « حامد سرى » فى يوم زفافه يستهديه شيئاً من طعام العرس وثياباً ، وكانا إذ ذاك متجاورين بالجيزة يقول فيها :

أحامد كيف تنسانى وبينى وبينك يا أخى صلة الجوار
أيشبع مصطفى الخولى وأمسى أعالج جوعتى فى كسر دارى[3]
وبيتى فارغ لا شىء فيه سواى وإننى فى البيت عارى
وما لى جزمة سوداء حتى أوافيكم على قرب المزار
وعندى من صحابى الآن رهط إذا أكلوا فآساد ضوارى
فإن لم تبعثنّ إلىّ حالا بمائدة على متن البخار
تغطّيها من الحلوى صنوف ومن حمّمَلٍ تتبّل بالبهار
فإنى شاعر يُخشى لسانى وسوف أريك عاقبة احتقارى[4]

وتكاد دعاباته كلها تنحصر فى هذه القصائد التى أشرنا إليها . وهى لا تُعتبر من أنماط الفكاهة التى تقوم على ما نسميه نحن (بالقفشات) التى تدور حول

---

(١) يريد (سليم سركيس) الصحفى المعروف ، وكان من أصدقاء حافظ .
(٢) الديوان ١/١٩١ .
(٣) كان بين الأستاذ مصطفى الخولى والأستاذ سرى صلة نسب .
(٤) الديوان ١/٢٠٤ .

التورية والمفارقات وتصدر عن بديهة حاضرة وخاطر لماح كان يُعرف بهما حافظ . والدعابة أخف ألوان الفكاهة ، وهى فكاهة الذين يعتصمون بالتوقر ، ولا تنتزع من السامعين إلا الابتسام الخفيف ، لا القهقهة والضحك الصاخب .

٩

الأخطاء والسرقات

شاع فى شعر حافظ كثير من الأخطاء ، ولعلى لا أجاوز الصواب إذا قلت إن منشأ الكثير منها شيوع هذا النوع من الخطأ فى الصحف والمجلات وفى الكتب التافهة ، وجريانه على ألسنة كثير من المتعلمين الذين لا يُعنون بالبحث والتقصى .

ويذكر الشاعر المرحوم الأستاذ أحمد محرم أنه التقى بحافظ بعد نشر قصيدته فى شكسبير ومطلعها :

يحييك من أرض الكنانة شاعر شغوف بذكر العبقريين مغرم[1]

فقال له : « أقرأت قصيدتى فى شكسبير ؟ فأجاب الأستاذ محرم : نعم ، وابتسم ، فضحك حافظ وقال : وماذا نصنع يا أخى وقد ابتلانا الله بلغة الصحف ؟ لقد أُغرم كتابها بكلمة (شغوف) فهى لا تفارق أقلامهم ولا تنجلى عن شفاهنا ، والصواب (مشغوف) كما تعلم ، لقد جعلتُ مكانها كلمة (ولوع) وانتهى الأمر »[2] .

ومما يؤسف له أنه لم يكن يطيق بذل الجهد فى البحث عن مادة لغوية للتحقق والاستيقان ، وفى ذلك يقول الشيخ عبد العزيز البشرى : « لم يكن له صبر على مراجعة معاجم اللغة فيما يُغِمّ عليه من مفرداتها . ولعل الأمر إذا كرثه فى بعض هذا تقدم إلى غيره فرجع إليه بما أصاب »[3] .

---

(١) الديوان ١/٧٢ .

(٢) مجلة أبولو ص ١٢٩٧ (يوليه ١٩٣٣) .

(٣) مجلة أبولو ١٣١٣ (يوليه ١٩٣٣) .

وأخطاء حافظ اللغوية والنحوية كثيرة منبثة فى ديوانه . ويغلب على ظنى أنه كان يعرف وجه الخطأ فى كثير منها ، ولكنه كان يخضع لأوزان الشعر ويستبيح لنفسه من الأخطاء ما لا يباح . وكان يداخله الشك ويزايله اليقين فى بعضها ، ولكنه كان لا يحب أن يتكلف الجهد فى سبيل الاستيثاق .

وقد تتبعتُ أخطاءه فى شعره فوجدتّها كثيرة ، ولست بمستطيع هنا أن أثبتها كلها ، وحسبى أن أذكر أمثلة منها ظاهرة كل الظهور لا يحتاج الفكر إلى جهد لإدراكها ، قال حافظ :

أزجى إليك قــواف منكسات الرءوس(١)

والصواب (قوافىَ) بإثبات الياء وفتحها . وقال :

سما فوقه والشرق جــذلان شيّق لطلعته والغرب خذلان يرقب(٢)

يريد بكلمة (خذلان) مخذول ، ولم نجد هذه الصيغة بهذا المعنى فى معاجم اللغة ومدوناتها ، والظاهر أن الشاعر ذكرها مقابلة لكلمة (جذلان) فى الشطر الأول . وقال حافظ :

وتفانيك فى سبيل (أبى حفــ ص) ومسعاك عند دفع المصاب(٣)

يريد بلفظة (التفانى) الاستماتة فى نصرة الحق . ولكن التفانى لا يتأتى إلا من طرفين ، فيقال : تفانت القبيلتان أى أفنى بعضهم بعضا . وقال :

وأشركنا مع الأخيــار منكم إذا جلسوا لإيقــام الحدود(٤)

لم يرد فى كتب اللغة (إيقام) بياء بعد الهمزة كما يقول حافظ ، والذى ورد (إقام) بدون ياء مصدر « أقام » ، وقال :

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا يرنّ كما قد كان بالأمس داويا(٥)

---

(١) الديوان ١/١٠٣ .
(٢) الديوان ١/١٥ .
(٣) الديوان ١/٢٣ .
(٤) الديوان ٢/٣١ .
(٥) الديوان ٢/١٤٩ .

المعروف فى كتب اللغة أن الفعل (دوّى) بتشديد الواو ، واسم الفاعل منه : مدو . وأما (دوى) بالتخفيف فهو استعمال شائع فى كلام الناس فى هذا العصر . وقال حافظ :

لهى عليك قضيتَ مرتحــلا لم تشك ، لم تستوص ، لم تقل(١)

يريد بكلمة (تستوصى) توصى . ولم أجد فيما راجعته من كتب اللغـة استوصيت بمعنى أوصيت . وقال :

أغمضْتَ عينيك عنها وازدريْتَ بها قبل الممات ولم تحفل بموجود(٢)

أخطأ فى قوله (ازدريْتَ بها) لأن الفعل يتعدى بنفسه . وقال :

هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا حدّ القراءة فى صحف وفى كتب(٣)

كان ينبغى أن يقول (بلغ) بدل (بلغا) لأن (أو) وُجدت بين الأجير والحراث . وقال :

ولا تنس من أمسى يقلّب طرفــه فلم تر إلا أنت فى الناس عيناه(٤)

كان الصواب أن يقول (إلا إياك) أو (إلاك) بضمير النصب . وقال :

وبات زغلولها فى وكرها فزعــا مروّعا ، لرجوع الأم ينتظر(٥)

أخطأ فى قوله (لرجوع الأم ينتظر) والصواب إسقاط اللام من (رجوع) لأن الفعل (ينتظر) متعد . وقال :

أو كان (فى) ظبى الحمى مغــرما أما لهذا الظبى من مرتــع(٦)

والصواب أن يقول (بظبى الحمى) بدل (فى ظبى الحمى) ، لأنه يقال مغرم بكذا ولا يقال مغرم فيه . وقال :

وعين اليم تنظــر للبخــار بنظرة واجد قلق الرجــاء(٧)

---

(١) الديوان ٢/١٥٦ .
(٢) الديوان ٢/١٣٩ .
(٣) الديوان ١/٢٦٥ .
(٤) الديوان ١/٣٧ .
(٥) الديوان ١/١٩٤ .
(٦) الديوان ١/٣٤ .
(٧) الديوان ٢/١٣٧ .

أخطأ فى قوله (بنظرة واجد) والصواب حذف الباء . وقال :

أيهـا الرافلون فى حـلل الوشـ ـى يجرّون للذيول افتخـارا[١]

أخطأ فى قوله (يجرون للذيول) والصواب حذف اللام لأن الفعل متعد . وقال :

رجـوتك مرة وعتبتُ أخرى فلا أجدى الرجاء ولا العتاب[٢]

الصواب أن يقول (فما) بدل (فلا) ويستقيم الوزن .

وهذه الأخطاء كثيرة فى شعر حافظ ، وتكفينا النماذج التى ذكرناها منها .

وكان حافظ يسطو على معانى الأقدمين ، وقلما كان يزفها فى أثواب قشيبة تكسبها حسنا وبهاءً . ولكنه كان يكسوها فى الغالب الأعم أسمالا بالية تمسخها مسخاً وتشوّهها تشويهاً يؤذى الذوق والفن جميعاً .

والواقع أن سرقات حافظ وإغاراته على شعر غيره كثيرة يكاد يخطّها العدّ . وقد أورد له المرحوم الأستاذ إبراهيم المازنى الكثير من هذه السرقات [٣] ، وردّها إلى أصولها ، ولكنه كان متحاملا عليه — فى غير نصفة — تحاملا يأباه النقد البرىء . فهو يرى « أن حافظاً نكِد القريحة ، وأنه لزمانة سليقته يلجأ إلى السرقة وانتحال شعر الأوائل » ، ويرميه بكثرة الإسفاف وقلة السمو حتى فى سرقاته « لأنه لا يعمد إلا إلى المعانى الصغيرة فيطلق يده فيها إذ كانت روحه لا تسع المعانى الجليلة » [٤] . ويسرف الأستاذ المازنى — رحمه الله — فى حملته إسرافاً لا يُقرّه عدل ولا ذوق ، فيحكم عليه بأنه « من ساقة الشعر ومتلصصيهم ، ولولا مؤازرة الأستاذ الإمام له وتنويهه به وحث الناس على اقتناء ديوانه لكان اليوم نكرة من النكرات وغُفْلا من الأغفال »[٥] .

---

(١) الديوان ١/٢٥٠ .
(٢) الديوان ١/١٦٦ .
(٣) انظر كتاب الأستاذ المازنى (شعر حافظ) .
(٤) شعر حافظ ص ١٧ .
(٥) شعر حافظ ص ٢١ .

والواقع أن حافظاً كان يتناول المعنى القديم فلا يضفى عليه شيئاً من الجدة أو الطرافة ، بخلاف زميله شوقى الذى كان يصوغ المعنى القديم صوغاً رائعاً ويطوّره تطويراً يكسبه طرافة وجمالا . وأمامنا معارضاته لفحول الشعراء ، ففيها تتضح قدرته على الخلق والابتكار . أما حافظ فكان حظه من ذلك تافهاً ضئيلا . وإنى لذاكرٌ هنا نماذج لهذه السرقات ، وستدرك منها أن حافظاً لم يكن يأتى بشىء جديد يروعك أو يستأثر بإعجابك كما كان يصنع شوقى . . قال حافظ :

جنيتُ عليك يا نفسى وقبلى عليكِ جنى أبى فدعى عتابى

أخذه من بيت أبى العلاء المشهور :

هـذا جنـاه أبى عـ ـلىّ وما جنيت على أحد

وقال :

ليت شعرى هل لنا بعـد النـوى من سبيل للقا أم لات حين

أخذه من قول بشار :

يا ليت شعرى وقـد شط المزار بهم هل تجمـع الدار أم لا نلتقى أبدا

وقال :

لست أدعـوك بالـتراب ولكن بقـدود المـلاح والأجيـاد

بخـدود الحسان ، بالأعين النجـ ـل ، بتلك القـلوب والأكبـاد

استأنس فيه بقول أبى العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلا من هـذه الأجساد

ولعلك تدرك أن بيت المعرى أجمل صياغة وأنصع ديباجة . هذا إلى ما فى كلمتَى (القلوب والأكباد) فى بيتى حافظ من القلق والركاكة ، وقال :

رحم الله منـه لفظـاً شهيّـا كان أحـلى من ردّ كيد الأعادى

أخذه من قول الخوارزمى :

وكيف ونظـرة منهـا اختـلاساً ألـذّ من الشماتة بالعـدو

وقال :

إنى فتـاك فلا تقطـع مواصلتى هبنى جنيتُ فقـل لى كيف أعتذر

نظر فيه إلى قول جميل :

فإن لم يكن قولى رضاكِ فعلّمى نسيم الصبا يابُثْن كيفَ أقول

وقال :

لا تعيبنّ يا شكيب دبيبى إنما الشيخ من يدب دبيبا

أخذه من قول الشاعر :

زعمتنى شيخاً ولستُ بشيخ إنما الشيخ من يدبّ دبيبا

وقال :

وحسرة فى القلب لو قُسّمتْ على ذوات الطوق لم تسجع

أخذه من قول الشاعر :

قد مرّ بى من صرفه حاصب لو مرّ بالورقاء لم تسجع

وقال فى وصف الأرض فى حرب اليابان :

وأصبحت تشتاق طوفانها لعلها من رجسها تَطْهر

أخذه من قول أبى العلاء :

والأرض للطوفان مشتاقة لعلها من درن تُغسل

وقال من قصيدة يمدح بها البارودى :

تيمّمتها والليل فى غير زيه وحاسدها فى الأفق يغرى بى العدا

أخذ معنى الشطر الثانى من قول المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يُغرى بى

وقال :

وما الذى تخشاه لو أنهم قالوا فلان قد غدا عبدكا ؟

أخذه من قول مهيار الديلمى :

ما على قومك أن صار لهم أحد الأحرار من أجلك عبدا

وقال من قصيدة يرثى بها الأستاذ الإمام محمد عبده :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

أخذه من قول الشاعر :

كنت أخشى صرف الحمام فلما راح يحيى أصبحتُ أخشى حياتى

وقال :

نامت بمصر وأيقظت لحوادث الأيام سعد

أخذه من قول بشار :

إذا أيقظتك صعاب الأمور فنبّه لها عمراً ثم نم

وقال يرثى الإمام :

لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا تجاليده فى موحش بفلاة

أخذه من قول محمد بن بشير الخارجى :

أقول وما يدرى أناسٌ غدوا به إلى اللحد ماذا أدرجوا فى السبائب

وقال فى رثائه أيضاً :

بكينا على فرد وإن بكاءنا على أنفس لله منقطعات

أخذه من قول الشاعر :

وما كان قيس هلكُه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّما

هذه أمثلة من سرقاته ، ولو شئت أن أذكر سرقاته كلها لاحتجت إلى عشرات الصفحات ، وحسبي ما ذكرت منها .

وعلى أية حال فنحن نستطيع أن نقرر بعد الذى ذكرنا أن حافظاً لم تكن لديه القدرة على التجديد والابتكار ، بل إنه كان فى كثير من الأحيان يمسخ المعنى ويسلبه بهاءه وجماله .